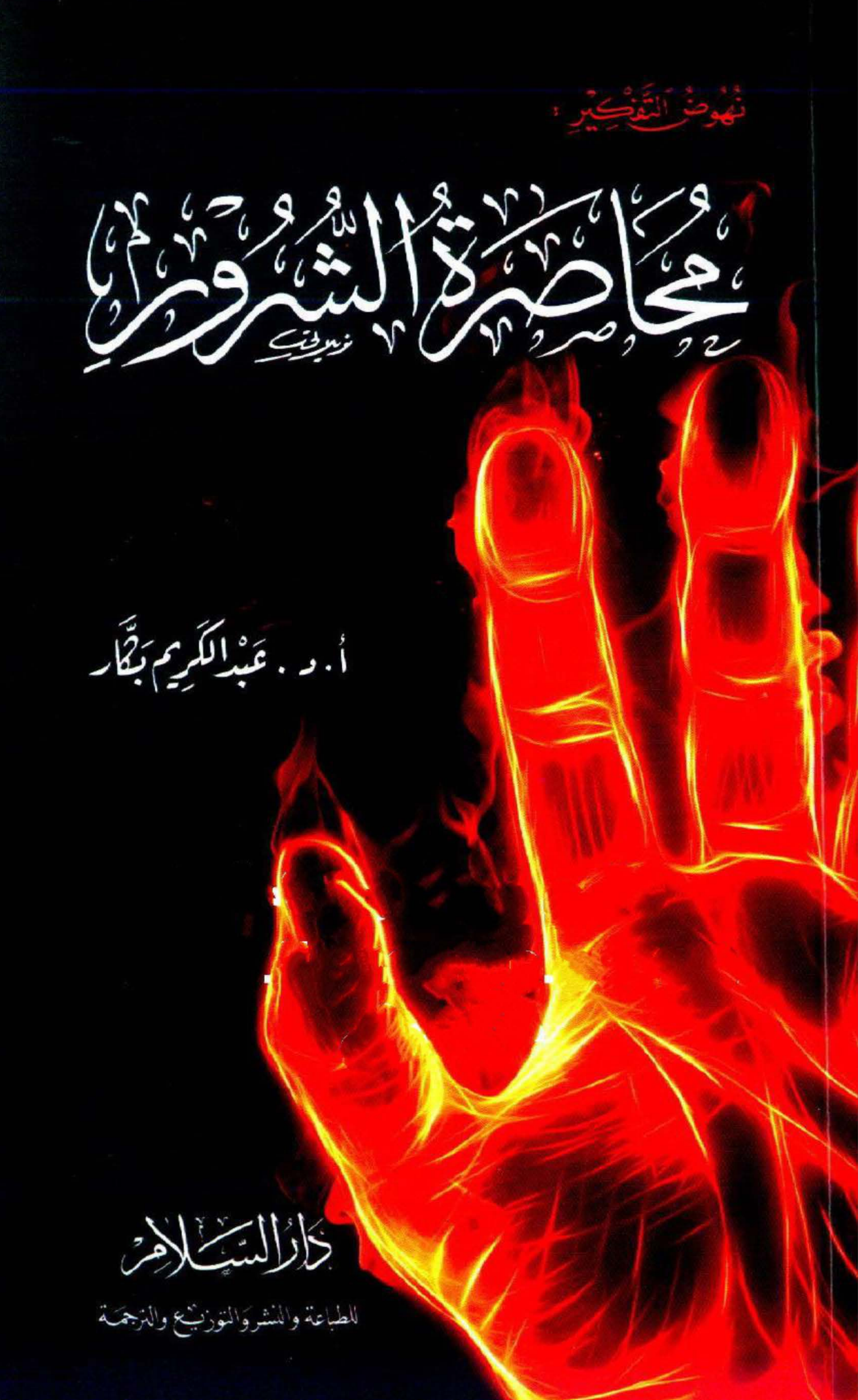

نهوض التفكير:
محاصرة الشرور
أ. د. عبد الكريم بكار
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

نهوض التفكير



تأليف

أ. د. عبد الكريم بكار

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .
محاصرة الشرور / تأليف عبد الكريم بكار - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠م .
١٠٤ ص ؛ ٢٠ سم .(نهوض التفكير).
تدمك ٨ ٨٩٣ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الخير والشر - مقالات ومحاضرات .
أ - العنوان.
١١١،٨٤٠٤

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عقد الجائزة تقريبًا لعقد ثلث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

قبل أن نبدأ:

لا خوف من المستقبل
ما دُمنا نؤمن ونُفكِّر ونُبدع

نُقدِّم هذه الإسهامات الجادة التي تمرِّن العقل وتُنشِّط الفهم وتفكِّر في المفقود بعيدًا عن الاستثناء والضرورة وحالات الطوارئ وشعارات التصدي والمواجهة والمجابهة؛ فباسم هذه الكلمات مُورس استغلال وجرائم بحق شعوب كاملة، وأُلقي بالإنسان في غياهب ضياع في ضياع.

إنّنا نكره فكر الضرورة التي أملتها جوقة بعض السلاطين ووعّاظهم من المثقّفين فهي كما يقول رئيس الوزراء السابق وليم بت (١٧٥٩ - ١٨٠٦م): « ذريعة كل انتهاك للحرية الإنسانية، إنها حجة الطغاة، إنها عقيدة العبيد » [١].

بل نفهم أن الواجب علينا إزاء تحديات الراهن التي يمليها علينا القهر الداخلي والظلم الخارجي، التقدُّم وبإلحاح إلى تطبيق المقولة: « المشاريع الصغيرة الواقعية خير من الشعارات الكبيرة الخيالية ».

وهذه ليست ضرورة بل واجب حقيقي، وقد أشار إلى

---

(١) قاموس الأقوال المأثورة، إعداد جورج خوري.

هذا الخطيب الدمشقي، فقال المهندس أحمد معاذ: « ليكن لكل منا مشروعه الخاص الصغير، ودعونا لا ننتظر الأمور الخارقة؛ لأن حركة التاريخ كما يقول مالك بن نبي رحمه الله: إنما تصنعها آلاف الجهود الصغيرة التي لا نُلقي لها بالًا، وليكن مشروعنا الخاص الصغير في أي درب مباح فإن موعود الله تعالى حق: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] »[1].

إن الطموح كبير في بناء ثقافة تحرّض على الوعي وتخرج بالإنسان من الكلالة إلى الفاعلية والإنجاز، وهي المدخل الرئيس لبناء نهوض وتحرر إرادة.

إن التفكير في تفكيرنا وخارطتنا الجغرافية الفكرية والتكلُّم بصراحة عن دوائر التأثير الحقيقية والقراءة في منظوماتنا البنائية الفكرية هو الخطوة الأولى للخروج من الهوان المبصر، فجذر المشكلة يكمن في مرجعيات المعنى، وأنماط الرؤية، أو في شبكات الفهم، وسلم القيم - أي في عالم الفكر بنظامه ومسبقاته أو بقوالبه أو أحكامه أو بإداراته أو سياسته - ولا عجب، فالتفكير الذي هو حيلة الإنسان سلاح ذو حدّين، قد نصنع به المعجزة، ونخرق الشرط، ونفك الطوق، لكي ننتج المعرفة والثروة والقوة بقدر ما نمارس

---

(١) www. darbuna.net.

علاقتنا بوجودنا بصورة حية وخصبة، خلّاقة وبناءة وفعّالة وراهنة، وقد يولد التفكير العجز والخواء، أو الجهل والعماء، أو التسلط والاستبداد، وذلك بقدر ما نتعامل مع أفكارنا بصورة متحجّرة ومغلقة، أو أحادية وحتمية، أو طوباوية وفردوسية، وبقدر ما نتعامل مع الأحداث والحقائق على سبيل التبسيط، والتهوين، أو التهويل، والتضليل، أو التلفيق والتزييف، أو التهويم، والتشبيح.

وهكذا فأزماتنا وكوارثنا ليس مصدرها الآخرين أو الأقدار فحسب، بل أفكارنا بشكل خاص كما تتجسد في العقليات والمرجعيات، والنماذج والمقولات والتصنيفات، والعقائد والطقوس، التي تهيمن على المشهد الثقافي العربي، وتتحكّم في الخطابات التي في غالبها تنتج العوائق والمآزق، وتلغم المساعي الوجودية والمشاريع الحضارية.

وقد أوضح الدكتور عبد الكريم نقاطًا مهمة فبيَّن قائلًا: إننا معاشر المشتغلين بصناعة الثقافة، ربما كنّا مبالغين في تقدير دورنا في نهضة الأمة وإصلاح شأنها. لكن هذا لا يمنع من الاستمرار في العمل، إنما مع ضرورة البحث عن الوسائل والأُطر التي تحوِّل الأفكار الجيدة من كلام منطقي منمَّق إلى تربة خصبة تحتضن الشجرات الباسقة.

إن الفكرة تكون كالعاصفة العاتية إذا كانت تلخيصًا

لتفاعلات مرحلة كاملة، وتكون أشبه بسفينة عملاقة إذا تبنَّتها دولة، وتكون بمثابة نور متوهِّج إذا تبنَّتها جماعة، وأخذت تربّي أبناءها عليها.

ثم قال في مقاربة ثانية: ربما احتاجت كل فكرة من الأفكار الأساسية إلى مؤسسة تنهض إلى تحويلها إلى فعاليات وأنشطة، وتجسُّدها في حركة اجتماعية واعية، وتوفِّر لها إلى جانب ذلك آفاقًا جديدة للنمو والتطوُّر، وتصقلها من خلال النقد البصير.

إذا كانت لدينا فكرة جوهرية في تنمية الإبداع - مثلًا - فإن تأثير هذه الفكرة في إيجاد طليعة مبدعة سيكون قريبًا من الصفر. وسيكون الأمر مختلفًا إذا أنشأنا بناءً على تلك الفكرة مؤسسة لرعاية الموهوبين واكتشاف المواهب.

وإذا كان لدينا أفكار أساسية حول أهمية التربية المبكرة في تكوين شخصية الطفل، فإن علينا أن ننشئ سلسلة من رياض الأطفال النموذجية التي تتجسد فيها أفكارنا التربوية.

إنها رؤية الإبصار والتنوير الداخلي بدل شيوع مفردات الهجاء الكيدي التناحري الذي يشتم ويتوعد والذي استهزأ به الخطيب المهندس معاذ فجرح مداويًا، وصرّح مناديًا: « ليشق الخطباء حناجرهم في لعن أعدائنا، وليمتلئ الشارع بالهتافات، وليُصعِّد الإعلام سخطه واستنفاره، فكل ذلك

لا يقفز فوق المقدمات الصحيحة. إن الأقدام الغازية لم تأت بسبب قوتها، بل بسبب الظلم الذي عشعش في بلاد العرب والمسلمين، فقتل الألوف المؤلفة، وهجَّرها وشرَّدها وسجنها، وعطَّل الطاقات، ونهب الشعوب، وقتل الإبداع والمبادرة، وضيَّق على كل ذي نشاط وفعالية، ثم قام الظلم بكل صفاقة يتغنّى بالبناء والنهضة والتطور، بعد أن تفرَّجت الأمم الذبيحة برعب - ولعقود - على فلذات أكبادها، يُذبح الواحد منهم تلو الآخر ولا يجرؤ أحد على الكلام في بلاد الصمت الطويل، وإن سُمح بشيء فهو من تتمات أصول اللعب والتدويخ والاستيعاب للشعوب المسكينة الغافلة ».

ويتابع رئيس جمعية التمدن الإسلامي بدمشق فيشير إلى أنه: « حاول البعض الخروج من هذه المتاهات المرعبة حقًّا، فوقع بعضهم في فكر تكفيري دموي - وهو ما نرفضه تمامًا - أراق حتى الآن من دماء المسلمين الأبرياء ما لم يصبه من دماء المحتلين والغاصبين؛ هذا عمل مَن قد يُظن ببعضهم الإخلاص، فما بالك بمَن هم ضحايا الاختراقات المخابراتية التي لم تعد خافية على متتبع للأمور، والتي تتعمد كل يوم إعطاء المبرر لزيادة توحُّش الظالمين، وزج الأمم والشعوب التي تجهل الإسلام ووراءهم من خلال زرع الكراهية للإسلام وأهله في قلوب أبناء تلك الشعوب، وتنفيرهم من الإسلام وأهله، وبين يدي تلك الأجهزة المخابراتية أطراف ساذجة متقدة

العاطفة سقيمة الإدراك، وتقوم بما عجزت عنه أصابع الحاقدين على الأمة خلال عقود، وكذلك اقتصار الفهم التناصري على مبدأ تسييس الدين فقط ».

وقد اشتكى من هذا الشيخ راشد الغنوشي في كتاب (تمرد على الممنوع) فقال: « والحقيقة أن جوهر المشروع الإسلامي ليس سياسيًا (هو الدولة)، وإنما هو فكري اجتماعي تربوي متجه أساسًا إلى الفرد وإلى المجتمع وإلى الناس كافة، وعلى أساس ما ينجزه على هذا الصعيد يقاس نجاحه أو فشله، وهو ما يجعل الحرية والعدالة على رأس مطالبه باعتبارهما قيمة أساسية في الإسلام ومدخلًا لا بديل عنه لكل إصلاح ».

والعوائق الداخلية، عائق التجزئة، وعوائق فكر التغريب وفكر الانحطاط، ومن هذا الأخير قلة رسوخ فكر الحرية والتعددية في موروثنا بما يجعل التوصل صعبًا إلى الإجماع الضروري لكل اجتماع وكل تغيير، وكذا إدارة الحوار والتعامل مع الاختلاف سلميًا، بحثًا عن المشترك. وما حصل بين الجماعات الأفغانية الجهادية المنتصرة من تقاتل استكمل تدمير البلاد، وأسلمها لأشد عناصر الإسلام تخلفًا (طالبان) الذين انتهوا بحماقاتهم إلى توجيه الدعوة إلى الأمريكان.

وليس بعيدًا من ذلك ما انتهى إليه أهل المشروع الإسلامي في السودان من تنازع ذهب بريحهم، ودفعهم إلى التسابق

على الاستظهار بعضهم على بعض بالتمرد وبالخارج، كل ذلك ثمرة لهزال بضاعتنا في ثقافة الحرية والتعددية وفن إدارة الاختلاف سلميًّا، وهو ما نجح فيها الغرب بعد عصور من الفتن والتقاتل، فطفق يتقدّم بثبات صوب الإجماع متجاوزًا صارفًا الأنظار عن مواطن الاختلاف، يهملها مرة ويدعها لعامل الزمن يعالجها أحيانًا أخرى، بينما يتوقّف قومنا عند كل نقطة اختلاف فتتضخّم عندهم حتى تغشي أبصارهم عن ساحات الوفاق الفسيحة.

ومع ذلك فالثابت أن الأمة تتقدم وتقوى رغم أن الدولة فيها تزداد ضعفًا وخواء من الشرعية وتعويلًا أكثر على العنف مصدرًا للشرعية معززًا بالظهير الخارجي.

الإسلام واقع اليوم رغم استمرار نقاط الضعف الداخلي والعوائق الخارجية على سلم تاريخي صاعد، بينما مذاهب العلمنة في حالة ذبول وشيخوخة رغم أنها في سدة الحكم على الصعيد العالمي، والإسلام في المعارضة، ولكنه المعارضة الرئيسية، وستعمل سنّة التداول عملها. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو تداول لا يعني الإلغاء، ولكنه استيعاب لما هناك من كسب، وتشكيله في صيغ حضارية جديدة تتكفل بحل مشكلات مستعصية وضخ دماء جديدة في جسم الحضارة

العالمية: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

علينا أن نستمع إلى الاتباع الواعي الذي أنتج المنهج الإبداعي، حيث يذكر الأستاذ أحمد معاذ الخطيب أن المقدِّمات غير الصحيحة لا تثمر إلّا عواقب وخيمة، وسنن اللَّه تعالى لا تحابي أحدًا، وعلى المؤمنين ألّا يقعوا في فخاخ الجهل السنني.

ألا يحق لنا أن نسأل: كيف ولماذا؟ فإن التباكي الذي عودتنا عليه وسائل الإعلام حتى قتلت في النفوس كلمات كثيرة لكثرة مضغها له، كل ذلك لم يقدم للأمة ولا رأس دبوس تعتمد عليه، وإذا كنا نرفض الفكر الدموي والتكفيري، وإذا كنّا ضعفاء عاجزين فماذا نفعل، وهل نترك الشلل والقلق والخمول يضرب جذوره فينا؟ اللَّهم لا!

انهارت الأمة عسكريًا وسياسيًا في أوقات مختلفة، ولكن لم يستطع أحد تدميرها حضاريًا وأخلاقيًا وإنسانيًا، فقد بقيت تضخ الخير والإيمان والحضارة في جلسة علم، وموقف حق، ومساعدة محتاج، ومؤسسة وقفية، وسبيل ماء، وتحقيق مسألة، وإكرام جار، وعابر سبيل، وبر والدين، وحنو على رحم وأخت وضعيف وصغير وبائس، وكَرَم فطري، وإشفاق من معصية اللَّه بنعمه، وبقيت الأمة تتنفس الإسلام روحًا اجتماعية وتسامحًا وتدينًا فطريًا لا تعقيد فيه ولا تكفير،

وبقيت فطرتها نقية النسب، كريمة الأصول، لا ترضى الظلم، ولكنها تسلك لدفعه بدل الشتم والصياح الذي عودنا البعض عليه في هذا الزمن الأعجف، والفكر التكفيري الذي ينتسب إليه آخرون، تسلك الصبر والعمل البطيء والإصرار العنيد.

وتبث روحها في إتقان عملها وسلامة صدرها وابتداعها أساليب البحث عن البقاء لا في الجحور بل في ساحة مسجد، وشموخ مئذنة، وقدوة من عالم صالح يأبى النفاق، وفي مصلح هنا، ومؤلِّف هناك، وصانع وسبّاك وزارع وتاجر أمين وفلاح نشيط، وفي وشوشات مشربية خشبية عتيقة، وعناق سيباط لآخر، ودفء حارة، وهمسات ساقية، واستقامة شباب، وعفة فتيات، وفي فوح زنبقة، وأريج ليمونة شامية تهفو لنخلة في بغداد، وإباء لأهل المغرب قارفه حنين ترعة مصرية، مع طيب أهل السودان، ورقة أهل اليمن، إلى النبع الأول في بطاح مكة معقد الخير والضياء.

ما بين أيدينا أوراق فكر وتربية، شارك المؤلف أمته واجب التفكير في النهوض عبر محافل إعلامية مرموقة، عودة إلى الذات من أجل إيقاظ الوعي والتفكير في المفقود، وإحياء للانضباط الشخصي والمبادرة الذاتية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

الإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل، والمنغمس في الكفر متحير في الظلمة [١].

كتاب إيمان ومسؤولية وخروج على تحويل الإنسان إلى آلة للعلف أو للخلف.

شكرَ اللهُ سعي المؤلف وحيّا ربنا سبحانه الروح الطيّبة المبادرة التي تسعى نحو عقل النص وعقل الواقع.

والله من وراء القصد.

عَلاءُ الدِّين آل رَشِي

* * *

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٦/١٨٠).

محاصرة الشرور

مضت سنة اللَّه - تعالى - في الخليقة أن يظل الصراع مشتعلًا بين الحق وأهله من جهة، والباطل وأهله من جهة أخرى.

حين هبط آدم عليه السلام وزوجه من الجنة هبط معهما إبليس بوصفه المسؤول الأكبر عن إشاعة الشرور.

إن وجود إمكانية لاقتراف الشر والوقوع في الرذيلة، يشكِّل مظهرًا مهمًّا من مظاهر ابتلاء اللَّه - تعالى - لعباده. وكلما درجت البشرية في سبل العمران والتحضُّر اتسعت الإمكانات أمام أهل الخير وأهل الشر؛ لكن بما أننا نعيش في ظل حضارة مادية إلحادية فإن اكتشاف مساحات نشر الخير تحتاج إلى نوع من الإبداع، على حين أن الشر يطرق الأبواب وكثيرًا ما يدخل من غير استئذان!.

الخبرة القديمة لدينا في مقاومة الشرور، كانت تعتمد على النهي والزجر والتشنيع على المفسدين ومعاقبتهم. وهذا الأسلوب سيظل مطلوبًا، لكن التجربة التاريخية علّمتنا أن الضغط الاجتماعي إذا لم يصحبه تربية جيدة وتنمية أجود للوازع الداخلي، فإن آثاره ستكون أقرب إلى السلبية منها إلى الإيجابية. إنه يساعد على إخراج مجتمع ظاهره الصلاح والاستقامة والامتثال لآداب الشريعة، وباطنه المروق والفسوق.

إذا كنا نريد معالجة نظيفة للانحراف فإن هذا يتطلب معالجة تقوم على النعومة والجاذبية والتفاهم، واستخدام الحد الأدنى من القوة والسلطة.

إن من شأن التقدم الحضاري أن يوسع مساحة الحرية الشخصية لكل واحد من الناس، وهكذا فما كان يُظن شيئًا عامًّا يؤثر في الحياة الاجتماعية، ومن ثم فإنه يمكن نقده، صار في جملة الخصوصيات الفردية. وتتكون الآن أعراف، تجعل نصح الجار لجاره والرجل لأحد أقربائه من الأمور غير المستساغة. ولهذا فإن مساحة القول في محاصرة الشر تضيق يومًا بعد يوم. ومع هذا الانكماش أخذ المبدأ الإسلامي العظيم « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يذبل ويفقد منطقيته وأنصاره على نحو مخيف ومخجل!.

في الماضي كان عدد كبير من المسلمين يعوّل على (الدولة) في محاصرة الفساد والحد من انتشار الانحراف، بوصفها الجهة الوحيدة التي تملك سلطة رادعة ومنظمة ومعترفًا بها. وقد كانت الدولة تقوم فعلًا بشيء من ذلك، لكن لا بد أن نلاحظ عددًا من الأمور، منها:

أن الدولة حين تكون مشروعة، فإنها تستطيع الحد من كثير من صور انتشار السوء، لكن كما أشرت قبل قليل فإن الردع من خلال القوة يكون قليل الجدوى إذا لم يُصحب

بعمل توجيهي إيجابي. ونحن نعرف أن كثيرًا من المنحرفين تحوّلوا إلى مجرمين كبار من خلال سجنهم مع فئة ضالعة في الإجرام، أو مع أشخاص من أصحاب السوابق.

أما إذا كانت الدولة غير مشروعة أو كانت لا تخضع لرقابة شعبية جيدة فإن قدرتها على حماية الآداب العامة وحفظ ظاهر المجتمع تكون شبه معدومة، بسبب أنها هي نفسها تحتاج إلى الكثير من الإصلاح. وهناك نقطة مهمة لا ننتبه في العادة إليها، وهي أن مطالبة الدولة بالمزيد من التدخل لحماية الأخلاق والآداب والأعراف الحميدة، سيعني على نحو آلي منحها المزيد من الصلاحية والنفوذ في التدخل في حياة الناس، وهذا يتطلّب تضخم أجهزة الدولة، وهذا ليس في صالحها ولا في صالح شعبها.

إن الدولة مثل القلب ومثل الكبد إذا تضخّم فسد، وإذا فسد تضخّم. وقد صدق من قال: « الدولة وليدة عيوبنا. والمجتمع وليد فضائلنا ».

إن المجتمع الفاضل في الرؤية الإسلامية هو الذي يقوم بمعظم شؤونه دون أن يطلب المعونة من أي دولة أو سلطة بسبب استغنائه بمبادراته ومؤسساته وارتباطاته الأهلية والشعبية. وأعتقد أننا الآن وصلنا إلى بيت القصيد ومربط الفرس..

إن العالم يعيش حالة فريدة من التضاغط والتزاحم العملي،

وفي حالة كهذه تتعاظم قيمة الفعل ويتضاءل وزن الكلام. كما أن كثرة المغريات والمحفِّزات على الانخراط في الشأن الدنيوي أضعف قدرة الناس على المقاومة للشهوات بقدر ما أضعف نزوعهم إلى الآخرة وإلى عالم المعنى على نحو عام.

المستقبل في الحث والتأثير والكف والزجر سيكون للبيئة والجو والسياق والحالة العامة. إن البيئة الجيدة تؤثّر في الشخصية عن طريق (اللاوعي) وتقلّل الميول إلى الشرور بشكل سلس. السياقات الحسنة تُبنى من خلال الألوف من الأعمال الخيّرة والمبادرات الكبيرة؛ ومن هنا فإن على أهل الدعوة والغيرة على مستقبل الأمة أن يفكِّروا بطريقة جدية وعملية في كيفية الحصول على حضور متألق في كل المجالات، وعلى كل المستويات.

إن الطبيعة - كما يقولون - تكره الفراغ. ومن ثم فإننا علينا أن نتوقع أن كل فراغ سياسي أو تربوي أو اقتصادي أو إعلامي.. لا يقوم الصالحون بملئه فسيُملأ وبسرعة هائلة من قِبل غيرهم. ونستطيع أن نتعلم من حركة اليهود في العالم أكثر من درس بليغ، حيث استطاعوا أن يتحولوا وبصمت عجيب، ومن خلال العمل الدؤوب من أقلية مضطهدة مكروهة إلى أقليّة ساحقة ومهيبة ومسيطرة. ومهما قلنا عن محاباة الغرب لهم فإن الصحيح أيضًا أنهم قد أبدوا براعة نادرة في التنظيم والتخطيط والجهد المتتابع، وتلمس

مكامن القوة ونقاط الارتكاز، بالإضافة إلى الإحساس المبكر بأهمية العلم في تكوين النفوذ..

حين تكون على درجة عالية من الكفاءة، تكثر أعداد الذين لهم مصلحة عندك، وأعداد الذين يحتاجونك. ومن خلال الحاجة إليك يمنحونك الفرصة تلو الفرصة لأن تكون مؤثّرًا وفاعلًا. حتى أعداؤك فإنهم يضطرون إلى مصانعتك من أجل الاستفادة منك.

ملء الفراغ وإحداث التأثير المتميّز يحتاج إلى عدد من الأمور المهمة، منها:

١ - الكفاءة العالية، والتي يأتي كثير منها من وراء التعلُّم الجيد والتخصص والتدرب الممتاز والمثابرة في اكتساب الخبرة.

٢ - الأمانة والاستقامة وشعور المرء بالمسؤولية الأخلاقية عن العمل الذي بين يديه.

٣ - التضحية وخلق التبرع والعطاء المجاني انتظارًا للمثوبة من الله تعالى.

٤ - فن التفريق بين الجوهري والهامشي والمرض وأعراضه.

وأعتقد أن انتشار الشرور في المجتمعات الإسلامية يعود إلى عدد من الأسباب الجوهرية التي منها: حب الدنيا، ضعف التربية الأسرية، وَهْنُ الإيمان والجانب الروحي، الإعراض عن القراءة والاستمرار في التعلم، عدم كفاءة القوانين والنظم الإدارية.

٥ - الشعور بالمسؤولية الشرعية عن انتشار المنكرات وشيوع الفواحش.

ولنا أن نتأمل قول الله - جلَّ وعلا -: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وفي حديث الشيخين أن النبي ﷺ دخل على زينب بنت جحش رضي الله عنها فزعًا، يقول: « **لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب** ». قالت زينب: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « **نعم إذا كثر الخبث** »[١].

في زمان كزماننا يكون غير المباشر أهم من المباشر، ويكون الردع عن طريق الفعل أقوى من التأثير عن طريق الكلام، كما تكون الحركة الإيجابية أهم من الموقف السلبي الشاجب والمحتج.

وللنيّة الحسنة والنشاط المستعر قيمة في كل زمان. ولا يكافئ فضيلة الإخلاص إلّا كرم التوفيق.

* * *

---

(١) رواه البخاري، رقم (٣١٦٨)، ومسلم، رقم (٢٨٨٠).

مملكة الروح

أرواحنا وليست عقولنا هي مكمن وجودنا، وهي البعد الأرحب والأعمق في شخصياتنا. في أرواحنا تجتمع الروعة مع الغموض، ومنهما معًا تتولّد الحيرة.

والعالم حائر في أمر الروح اليوم، وحائر في التعامل معها. وقد مسّ أمة الإسلام في أيامنا هذه شيء من هذا وذاك.

ليست مهمة الإيمان مقصورة على رسم الفضاء النظري لمعتقداتنا ورُؤانا، إنما أيضًا منحنا التميز في عالم فَقَدَ الإيمان ودخل عالم الشك والضياع.

إن الإيمان بالله - تعالى - يمنحنا ميزة فورية هي صعوبة سجننا داخل معطيات مادية محددة. إنه يخرجنا فورًا من العالم المحدود والمحسوس إلى عالم من غير حدود. وذلك العالم عالم الروح وعالم الغيب.

في العالم المادي يشعر الإنسان دائمًا بالانكماش والضعف، ويجد نفسه محاصرًا بالضرورات ومهددًا بنفاد الطاقة. لكن في عالم الروح الأمر مختلف، كل شيء يتمدد، ويتسع، ويكبر فيشعر المؤمن بمدد لم يحسب حسابه، يغمر كيانه كله بالنور والحبور.

هدفنا الأعظم، نحن المسلمين، أن نفوز برضوان اللَّه - تعالى - وهذا الفوز يشكِّل مرجعية وأولوية بالنسبة إلينا، بمعنى أن الذي يُدخل البهجة على نفوسنا، ويغمر أرواحنا بالسرور النقي يجب أن يظل دائمًا في إطار محبوبات اللَّه - تبارك وتعالى - كما أن كل أشكال الارتقاء المادي وكل المغانم والمكاسب التي نحاول الحصول عليها يجب أن تتم داخل ذلك الإطار.

وهذه نقطة مفاصلة بيننا وبين الأمم الأخرى. إن الأمم التي تقود الحضارة اليوم قد أسست منذ مدة لوضعية فيها الكثيرُ من المجافاة للروح، حيث الأولوية لرفاهية الجسد، وحيث الحكم لمنتجات العقل ومعطيات الخبرة والممارسة. وليس في إمكان القوم على المدى القريب فعل أفضل من ذلك ما داموا فقدوا المفاهيم والرمزيات التي تجعل استمداد الرؤى من الوحي شيئًا معقولًا أو مقبولًا.

إن الإيمان يجعلنا ننظر بجدية إلى كل التحسينات التي ندخلها على بيئاتنا، وعلى أوضاعنا العامة؛ لا تشكل غاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لمساعدتنا على تعميق صلتنا باللَّه - تعالى - وعلى النجاح في الابتلاء الذي كُتب علينا في هذه الحياة.

إن مما يدعو إلى الأسف أن هذا المعنى المحوري قد لحقه

الكثير من الحيف في هذه الأيام، حيث تعمل العولمة على إغراق وعينا بجزئيات وفرعيات وتفصيلات لا نهاية لها. ومع أن الاهتمام بالتفاصيل يظل علامة على الارتقاء، إلّا أن ذلك يجب أن يكون في إطار الأصول والمبادئ الكلية، وإلّا تحوَّل إلى عامل يطمس ملامح توجهنا العام، فنفقد الغاية العظمى، وتصبح حركتنا في الحياة أشبه بكوكب فقد مداره.

الخلاصة أن مواصفات زماننا التي تزداد رسوخًا وتعميمًا لا تخدم عالم الروح، ولا تلائم متطلبات الإيمان، وهذا يعني أن على المسلم الذي يريد أن يحيا وفق مبادئه وعقيدته أن يعوِّد نفسه السباحة ضد التيار، وأن يمتلك طاقة استثنائية على التحمل والممانعة. ولدينا العديد من الآثار التي تدل على ما يلاقيه المتمسك بدينه في زمان كزماننا من عنت ومشقّة، كما ورد ما يدل على عظم الأجر وجزالة المكافأة التي أعدّها اللّه - تعالى - له.

ولا يخفى علينا أننا في عالم يقدّس القوة على حساب الرحمة. ويحتفي بالمادي على حساب المعنوي، وينخرط في العاجل على حساب الآجل، وينظر إلى الطِّيبة على أنها نوع من السذاجة، وينظر إلى الحديث عن الأخلاق على أنه شيء ينزع إلى المثالية؛ والمتحدث عنها يستحق شيئًا من الإشفاق!

وفي عالم كهذا تكون الأحاديث حول الرجاء والخوف

والمحاسبة والمناجاة والشوق إلى اللَّه - تعالى - وتذكُّر الصراط والميزان والكوثر وشقاء جهنم.. شيئًا يدل على العيش خارج العصر وبعيدًا عن دوائر الاهتمام. وهذا بالضبط ما يجعل مملكة الروح تبدو موحشة ومهجورة!

إن المسلم في هذه الحياة يحتاج إلى أمور كثيرة، لعله يأتي في مقدمتها أمران:

- **رؤية راشدة مسددة للواقع بفرصه وإمكاناته وتحدياته..**
- **وطاقة تساعده على قطع طريق طويل مملوء بالصعاب والعقبات.**

والتفكير والتأمل والتثقف والحوار.. أمور تساعد على تكوين الرؤى الجيدة. ويبقى علينا أن نتعلّم كيف نحصل على مفتاح منجم الطاقة والقدرة المطلوبة.

إن الإيمان باللَّه - تعالى - حين يتجاوز وضعية القناعة العقلية ليصبح مصدرًا للشعور بمعيّة اللَّه - تعالى - والأنس به والتوكل عليه والاستعانة به والثقة بما عنده.. فإنه يصبح آنذاك المولِّد الأساسي لروح المقاومة، وروح المبادرة، وروح الاستمرار لدى الإنسان المسلم.

الإيمان حتى يكون كذلك فإنه يحتاج إلى شيء غير الفكر وغير الثقافة، إنه يحتاج إلى التعبُّد والتنفُّل والإكثار من ذكر اللَّه - تعالى - ومناجاته.. ولا ريب أن من يفعل هذا

يكون في الأساس قد صار أداءُ الواجبات وتركُ المعاصي شيئًا مألوفًا في حياته وموضع التزام صارم.

في هذا الإطار يقدِّم لنا شهر رمضان المبارك الفرصة الذهبية لاستعادة شيء من أمجاد الروح السليبة.

إن الصيام في حد ذاته هو إعلان من المسلم بأنه قادر لمدة شهر كامل أن يفتح قوسًا في سلسلة أنشطة تستهدف خدمة الجسد، وذلك من أجل إنعاش الروح.

إن عالم ما بعد الحداثة يدفع بالناس للعيش في وسط مائع خالٍ من القيود، غير محدود بحدود. ويأتي الصوم بحرفية توقيته من الفجر إلى المغرب ليمنح المسلم فرصة التأكيد على أن التدّين الصحيح يُوفّر للمسلم ترياق المناعة ضد موجات التحديث التي تستهدف تفكيك المنظومة الفكرية والخلقية التي تساعدنا على أن نظل بشرًا أسوياء.

إن الاعتكاف قد بات من السنن التي هجرها كثير من المسلمين مع أنه يوفّر فرصة عظيمة لالتقاط الأنفاس اللاهثة خلف مكاسب مؤقتة، كما يوفّر فرصة نادرة لإرواء أرواحنا الظامئة وتحريك عواطفنا الجامدة.

إن في إمكاننا أن نتخذ من رمضان مناسبة لمراجعة أحداث عام كامل، ومن خلال تلك المراجعة فقد نتمكن من العودة إلى مملكة الروح ومغادرة عالم الوهم والسراب؛ فهل نحن فاعلون؟

رمضان انتفاضة الروح

شهر واحد في العام، له في النفوس وَقْعٌ مغاير لكل الشهور. ولهذا فلقد تفنن الكُتَّاب والمتحدِّثون في وصفه وتوصيفه، وسلكوا في سبيل بلورة فلسفة خاصة به كلَّ مسلك. ذلك الشهر هو شهر رمضان المبارك. وعلى كثرة ما كُتب وقيل في ذلك إلّا أنني أحس أننا ما زلنا نحوم حول الحمى، حيث لا نجد في اللغة ما يسعفنا للولوج إلى داخله. ومع هذا فعلينا أن نستمر في المحاولة.

لم تنل عبادة من العبادات في الإسلام من الاهتمام الشعبي ما لقيه صيام رمضان. وذلك الاهتمام يصل إلى حد الاحتفال الزاهي البهيج.

وقد ذكر ابن الجوزي في (صيد الخاطر): أن من الناس في زمانه من لو جلدته حتى يصلي ما صلى، ولو أنك جلدته حتى يفطر ما أفطر! مع أننا نعلم أن حرمة الصلاة أعظم من حرمة الصيام، واهتمام الشريعة بها أوكد. وما ذكره ابن الجوزي مستمر شيء منه إلى يومنا هذا في بقاع واسعة من عالمنا الإسلامي؛ حيث إنك تجد أهل قرية من القرى، وقد فرّط كثير منهم بالصلاة، فإذا جاء رمضان لم تكد ترى فيهم مفطرًا. ولا نعرف أسباب ذلك بدقة، ولكن ربما كان

من بينها شعور الناس أن المفطر في رمضان ضعيف الإرادة ناقص الرجولة. أو شعورهم بأن الفطر في رمضان يعبِّر عن نوع من الدناءة والخسَّة التي لا تليق بالإنسان السوي.

رمضان ليس إمساكًا عن الطعام والشراب في توقيت معلوم ومدة محددة، إنه أكبر من ذلك بكثير، إنه في الحقيقة أشبه بحملة روحية مكثفة وعامة، حيث الفرصة سانحة لانتفاضة الروح وانتشال الوعي من الغرق في المشاغل الصغيرة. **ولعلي أبدي هنا حول هذه المسألة الملحوظات الآتية:**

١ - علينا أن نعترف أن النخبة المثقفة لدينا تأثّرت تأثرًا بالغًا بالثقافة الغربية في إهمال الشأن الروحي إلى درجة الاستغراب ممن يتحدث عن صفاء القلب أو محبة اللَّه - تعالى - أو مراقبته أو الحياء منه.

قد صار كثير من المثقفين يرون أن الحديث عن هذه الأمور لا يليق بالمفكّر والفيلسوف والباحث الموضوعي! وهذا في الحقيقة ليس سوى صدى لانهيار المركز الذي احتلته الروح على مدار التاريخ.

وإذا كان الغرب منسجمًا في موقفه من الروح مع فلسفته ورؤيته العامة للحياة؛ فإنه لا عذر لأهل التوحيد والإيمان في السير في هذا الاتجاه؛ حيث إن الإخلاص، والصدق، وحب اللَّه - تعالى - والأنس به، والشوق إليه، وخوفه، وشكره،

والثناء عليه.. تشكل جزءًا جوهريًا من لباب التدين الحق، على ما هو معروف من النصوص والآداب الشرعية الكثيرة والمشهورة. ثم إن القاعدة الروحية الأخلاقية في أي مجتمع، هي التي تتحمل الأثقال التي تنتج عن طبيعة الحياة وعن إخفاق خطط التنمية المتعاقبة، وعن الانتكاسات التي تُصاب بها الأمة في الميادين المختلفة. ومن هنا فإن علينا أن نخطو خطوة نحو الوراء من أجل إعادة الاعتبار لهذا الجانب من حياتنا الخاصة والعامة.

٢ - من الواضح أن العولمة بما هي حركة لمراكمة المنافع المادية، تقلِّل من تأثير العقائد والأيديولوجيات في صياغة السلوك العام للناس، وهذا يحرم التربية الروحية من أطرها الإيمانية ومن مرتكزاتها العقدية. كما أن خطاب (ما بعد الحداثة) يحاول إسقاط الثوابت والمطلقات الدينية وغير الدينية، مما يجعل الناس يندفعون في نهاية الأمر إلى عالم سائل، لا نسق فيه ولا مرجع، ولا معيار. عالم خالٍ من المقدسات والغيبيات. وهذا يدفع بالناس في اتجاه إضاعة مبادئهم وأهدافهم في آنٍ واحد.

هنا يأتي الصيام ليؤكد أن المسلمين ما زالوا أوفياء لإيمانهم، ومن ثم فإنهم يردون على الطروحات الإلحادية بشكل عملي ملموس من خلال حرمان النفس من أكثر مشتهياتها إلحاحًا على نحو صارم وبالتزام حرفي؛ حيث تحسب بدايات هذه

العبادة ونهاياتها يوميًا بالدقائق وليس بالساعات.

٣ - يجب أن نعترف أن الجيل الجديد - وبعض القديم - يعاني من مشكلة متصاعدة، هي هذا الدفق الهائل من الصور والرموز المثيرة للغرائز، والذي تفيض به الفضائيات وشبكة الإنترنت والأفلام والمجلات المختلفة. إن ما يجري الآن من إشعال للسعار الجنسي، قد تجاوز الخيال حيث لم يقتصر الأمر على أن تفتح بعض الشعوب أبواب غُرف نومها، ليرى العالم ما يجري فيها، بل تجاوزه إلى تقديم فنون من الإغراء بالرذيلة وممارستها، لا يعرفها (٩٠٪) من الناس!

وتجاه هذه الوضعية الخطرة التي زادت في نسبة انتشار الزنا والخيانات الزوجية إلى حدود مخيفة، يدور حديث اليوم حول التوعية بمخاطر هذه الهجمة، وحول ضرورة تدريس (التربية الجنسية) في المدارس.

ومع احترامي لما يُقال في هذا الشأن، إلّا أن علينا أن نقول: إن التيار الشهواني، لا يُقابل بالمزيد من الفكر، ولا بالمزيد من الوعي، وإنما يُقابل بإنشاء تيار روحي، يقدِّم للفرد المسلم - ولا سيما الشباب - مسرَّات وجدانية، تفوق في إمتاعها وعطاءاتها، ما تقدمه الغريزة الجنسية.

وشهر رمضان بما فيه من صيام وقيام وقراءة للقرآن، وبما فيه من اعتكاف وتشمير للعبادة في العشر الأخير.. يساعد

في تأسيس هذا التيار، ويقدم سنويًّا فرصة لتجريب هذا اللون من الطمأنينة والسكينة والشعور بمعية اللَّه - تعالى - والأنس به. كما أنه ينبّه الوعي إلى إمكانية البحث عن سعادة غامرة بعيدًا عن رغبات الجسد.

إننا حين ننظر إلى صيام هذا الشهر المبارك على أنه جهد مقدّر في سياق إطلاق تيار روحي مقاوم للتيار الشهواني، فإن من المرجح أن نجعل للقربات في هذا الشهر معنى جديدًا يكسر رتابة الرؤية الحالية، ويوسّع آفاقها.

٤ - إن انتصار أي ثقافة يتوقّف على مدى ما تتمتع به من قيم تضفي عليها التألق والجاذبية. وإن أمتنا في أمسّ الحاجة اليوم إلى أن تتلمس المثل والقيم التي تجعل في ثقافتها شيئًا ساميًا ومنسجمًا مع تعاليم دينها. ومن تلك القيم: التضحية، والتكافل، والغَيْرية، وإجهاد النفس، والتسامي على الحاجات المادية، والاهتمام بالحاجات الروحية، إلى جانب حد أدنى من الالتزام الأخلاقي الاجتماعي، بالإضافة إلى تحديد جديد لمحتوى الحاجات الإنسانية على نحو يجعل إنعاش الأرواح، وتطهير النفوس، والسمو بالأخلاق، ضمن أولويات تلك الحاجات. وهذا في الحقيقة ما تستهدف شعيرة الصيام تحقيق الكثير منه.

الصائم يثبت أنه قادر على كفّ نفسه عن الطعام

والشراب من أجل تدعيم الجانب الروحي لديه. ومن الملاحظ أن معظم المسلمين يخرجون زكواتهم في رمضان، كما أنهم يخرجون كذلك صدقة الفطر في آخر الشهر، وترى إلى جانب ذلك الكثير من الصور المعبرة عن الاهتمام بالفقير على نحو ما نجده في موائد الإفطار في المساجد وغيرها. وهذا يعزز التكافل الاجتماعي، ويجعل حاجات الفقراء والمحتاجين حاضرة في الذهن، ويدل على أننا نقوم بعمل نبيل، وهو ترجمة المكاسب الاقتصادية التي يحصل عليها بعض الأفراد إلى مكاسب اجتماعية عامة.

وقد ورد في بعض النصوص ما يشير إلى أن الصيام يستهدف تنمية خلق العفو والتسامح لدى المسلم، كما يستهدف تهذيب النفس والترفع بها عن الرذائل، على نحو ما نجده في قوله ﷺ: « **الصيام جُنّة، فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث، ولا يجهل، ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله، فليقل إني صائم** » [١].

وقوله ﷺ: « **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** » [٢].

إن إثباتنا لعمق فهمنا لهذه الشعيرة العظيمة، يتوقف فعلًا

---

(١) رواه البخاري، رقم (١٧٩٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده، رقم (٩٨٤٦)، والبخاري، رقم (١٨٠٤).

على التغييرات الإيجابية التي نحدثها في أخلاقنا وسلوكاتنا، وعلاقاتنا؛ وهذا ما علينا النجاح فيه اليوم.

٥ - الصوم بوصفه عبادة كفّ (امتناع عن المفطرات) وليس عبادة فعل، يكتسب خصوصية ليست لغيره من العبادات. وتلك الخصوصية، هي البعد عن الرياء؛ حيث لا يستطيع الناس معرفة تلبُّس المسلم بهذه العبادة من خلال سلوكه. ومن هنا فإن الصائم يشعر أن الصيام عبارة عن أمانة أو سر بينه وبين ربه سبحانه، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله ﷺ: **« كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف. قال الله - تعالى -: إلا الصوم فإنّه لي وأنا أجزي به، يدعُ طعامه وشرابه من أجلي »** [١].

وهذا على مقدار ما يجعل رقابة المجتمع على الصائم ضعيفة وغير مجدية، يعزز الرقابة الذاتية لدى المسلم، وينمّي لديه الشعور بالمسؤولية تجاه هذه الفريضة.

إن الصيام من هذه الزاوية يشكّل فرصة لتدعيم الوازع الداخلي (الضمير) لدى الصائم. ويأتي هذا التدعيم بسبب ما تقدمه طبيعة الصيام من فرصة للاختيار. وتشتد الحاجات إلى هذا اليوم؛ ولا سيما في البيئات الضيّقة، حيث يختل التوازن الذي ينبغي أن يقوم بين الرقابة الذاتية والضبط

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم (٩٧٢٠)، ومسلم رقم (١٦٤/١١٥١).

الاجتماعي لصالح الأخير؛ إذ إن من الملاحظ أن الفرد بسبب خوفه من المجتمع يكون له سلوكان: اجتماعي وشخصي، ويكون خيرهما ما يظهر للناس! الصيام يساعد على استعادة التوازن في هذه المسألة؛ حيث يندفع الصائم إلى ترك الملذّات والشهوات بسبب خوفه من اللّه - تعالى - ورجائه لما عنده، وليس بدافع خوف الناس ورقابتهم عليه.

٦ - يعتمد الصائم في القيام بهذه الفريضة العظيمة على الصفة التي تعتمد عليها التربية الخلقية، وهي تعدّ بحق الدعامة الأولى في بناء الأخلاق، وهي قوة الإرادة والقدرة على ضبط النفس. إن الصائم يُثبت كل يوم وخلال شهر كامل أنه يملك أن يقول: (لا) في وجه أكثر غرائزه إلحاحًا عليه.

وإذا تأملنا في أوضاعنا الشخصية وجدنا أن المشكلة الجوهرية التي نعاني منها، لا تتمثل في نقص الإمكانات والقدرات، وإنما في ضعف العزائم والإرادات. إن في إمكان المسلم أن يفعل الكثير من الأشياء الجيدة كل يوم، لكنه لا يفعله بسبب الميل إلى الدعة وفَقْد ما يحتاجه تحمل المشاق من إرادة وتصميم.

ولهذا فإن من الممكن القول: إن مشكلة المسلمين اليوم ليست مع المستحيل، وإنما مع الممكن. وليست مع العسير، وإنما مع اليسير. والصائم يقدم نموذجًا في رمضان لما يمكن أن يفعله المرء حين يحرِّر إرادته من سلطان شهواته. ولا يكتفي

الصائم بهذا، وإنما يخطو خطوة عظيمة أخرى، حين يجعل إرادته في حالة استسلام تام لإرادة اللّٰه - سبحانه - من خلال المبادرة إلى التقرّب بأنواع القربات. وهذا يشكّل جوهر التديّن الحق. هذه الوضعية تساعد على الإجابة عن السؤال الصعب: « من يربي المربي »؟ في رمضان يقوم المربي من أب وجد وأم ومعلم ومعلمة.. يقوم هؤلاء بتشذيب أنفسهم وتصحيح أوضاعهم والاقتراب من الحالة التي ينبغي أن يكونوا عليها، وبذلك يصبحون أكثر لياقة للقيام بمهمة التربية.

٧ - هذا هو رمضان في حقيقته وفي طبعته الأصلية، فكيف يجسّده المسلمون في واقعهم العملي؟ وإلى أي حد يستفيدون فعلًا من عطاءاته المتنوعة؟

لا بد من القول: إن رمضان يظل الشهر المميز والخاص على الرغم من ابتعاد كثير من المسلمين عن جوهره وتفريغهم له من العديد من مضامينه ودلالاته. إننا جميعًا نشعر بأننا نلنا شيئًا من نفحات رمضان، وفاض علينا الكثير من خيراته وبركاته. هذا شيء ليس موضع جدال، لكن إذا قارنّا بين الأصل والصورة والجوهر والمظهر، فسنجد أن السواد الأعظم من المسلمين يمارسون نوعًا من الالتفاف على الصيام، ليحوّلوه إلى شيء شكلي وذي تأثير مؤقت.

والواقع أن الناس على مدار التاريخ كانوا يجدون الفرصة للقفز على الواجبات والتنصل من المسؤولية تجاهها بطريقة من الطرق.

ويحضرني في هذا ما يذكرونه من أن أحدهم قال لأعرابي: جاءك رمضان! فقال: نقطعه بالأسفار!. إن كثيرًا من شباب المسلمين اليوم يقطعون ليل رمضان بالسهر إلى ما قبيل الفجر مشغولين بكل شيء إلّا العبادة، أما النهار فإنهم يمسكون فيه عن الطعام والشراب على نحو طبيعي لأنهم ببساطة يغطون في نوم عميق!

وكان من المفترض والمأمول أن يوفّر الصائمون في رمضان نحوًا من (٣٠٪) من إنفاقهم على الطعام والشراب بسبب الاقتصار على وجبتين عوضًا عن ثلاث وجبات، لكن واقع الحال ينبئ بغير ذلك؛ حيث ينفق كثير من الأسر في رمضان مثل أو ضعف ما ينفقونه في غيره. إنهم يُمسكون عن الطعام في النهار ليأكلوا في الليل أكثر مما أمسكوا عنه!.

وقد تجاوز الأمر ذلك إلى أن بعض السلوكات السيئة صار شبه مقصور على هذا الشهر المبارك؛ حيث أنشأ بعض الناس في بعض الدول الإسلامية ما يسمى بـ (الخيام الرمضانية) وهناك يستمر الغناء والرقص إلى آخر الليل في احتفالية مجونية! وتوحي الفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة

للناس بأن رمضان ضيف ثقيل؛ ولهذا فإنهم يكثفون في هذا الشهر الإنتاج الفني والفكاهي كي يلطّفوا من وطأة الصيام!

ثبت أن من طبيعة الناس أن يجعلوا (الدين) بتعاليمه وشعائره جزءًا من ثقافتهم العامة، عوضًا عن أن يكون مهيمنًا عليها وموجهًا لها. وهذا ما يفعله كثير من الناس في رمضان! وثبت كذلك أن الأمم حين تكون في حالة جمود أو تخلّف حضاري، فإنها لا تملك الإرادة، كما لا تملك الخبرة الكافية للاستفادة من مبادئها وتوظيفها في النهوض بأوضاعها.

وهذا ما يلاحظه المتتبع لتعامل المسلمين مع الكثير من التعاليم والعبادات. فهل نحن قادرون على أن نجعل من رمضان محطة لإعادة شحن قوانا الروحية، وفرصة للاستدراك على قصورنا الاجتماعي من خلال توفير جزء من نفقاتنا وتوجيهه لمساعدة العناصر الأكثر حاجة؟

هل نحن قادرون على جعل رمضان بداية لمرحلة تغيير على الصعيد الشخصي، والتخلص بالتالي من مشاعر العجز والإحباط المنتشر في كل مكان؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة متروكة لكل واحد منّا ليصوغها بطريقته الخاصة ورؤيته الشخصية.

* * *

النقد البنَّاء

في حياتنا العامة والخاصة عدد كبير من الجدليّات، حيث يكون الشيء في وجوده أو استقامته أو بواره متوقفًا على وجود شيء آخر. ويتناوب الشيئان على الوظيفة نفسها، كتلك العلاقة التي نلمسها بين المرض والفقر؛ إذ يهيّئ الفقر صاحبه للتعرّض للمرض، كما أن المرض من جهته يسبّب للفقير المزيد من الفقر وهكذا..

هذا يعني أن خصائص كثير من الأشياء لا تُستمد من ذاتها، وإنما من العلاقات التي تربطها بغيرها، ومن المؤسف أن اكتشاف العلاقات الجدلية على الرغم من تأثيرها الكبير، لا يلقى من معظم الناس الاهتمام، ومن ثمّ فإن معرفتنا بها تتسم بالقصور والسطحية!

بين البناء والنقد علاقة جدلية، عظيمة الأهمية إلى درجة أن كلًّا منهما يتغذّى على الآخر بصورة جوهرية. ولا نستطيع أن نعرف مدى حاجة كل منهما إلى الآخر إلّا إذا قطعنا الحبل السريري الذي يربط بينهما. ولعلّي أبسط القول في هذه المسألة المهمة عبر المفردات الآتية:

١ - إن القرآن الكريم نزل منجمًا في مدة طويلة نسبيًّا، وهي مدى حياة النبي ﷺ بين البعثة والوفاة. ويلاحظ الناظر

دون عناء أن معظم ما يتنزّل من الذكر كان يرتبط بوجه من الوجوه بحركة المجتمع الإسلامي. إنّه يوجه المسيرة، ويوضّح ملامح الطريق، كما أنّه يذكّر السائرين بالمقاصد النهائية لسيرهم. وحين يقع خطأ بسبب اجتهاد أو ضعف بشري، فإن القرآن الكريم يُنبّه المسلمين إلى ذلك الخطأ بقطع النظر عن مقام المنتقَد وعن نوع موضوع النقد: هل هو عام أو خاص بشخص من الأشخاص، على نحو ما نجده في قوله - سبحانه -: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]. وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]. وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي السنّة النبوية الكثير الكثير من النصوص التي تنتقد بعض تصرفات الصحابة، وتدلّهم على ما هو أفضل وأصوب. وقد وعى المسلمون المغزى العميق لذلك، ومارسوا النقد بصيغ عديدة. ولطالما كان النقد البنّاء عامل تحرير للأمة من كثير من الزيغ والخطأ على ما هو معروف ومشهور.

٢ - لو تساءلنا: ما الذي يعطي المشروعية للنقد، ويجعل منه شيئًا لا غنى عنه لاستقامة الحياة؟ لوجدنا أن ما يمكن التحدث عنه في هذا الشأن كثير، لعلّ منه:

أ - حين نُخطّط لأمر من الأمور، أو نحاول اكتشاف ميزة عمل من الأعمال، فإن من الواضح أننا لا نستطيع الإحاطة بالاعتبارات التي تجعل قراراتنا صائبة على نحو قاطع. هناك دائمًا حقائق غائبة وأجزاء مطموسة، ومعلومات غير متوافرة. ولهذا فإن علينا أن نبني خططنا ونظمنا ومناهجنا على أنها أشياء قابلة للمراجعة، ومحتاجة للتصحيح والتطوير. ولن نكون موضوعيين إذا فعلنا غير ذلك.

إن الطبيب حين لا يتأكد من تشخيص مرض من الأمراض، يصف لمريضه علاجًا مؤقتًا إلى أن تخرج نتائج الصور والتحاليل، فيصف العلاج النهائي؛ لأن خبرته الطبية دلته على السلوك العلاجي الملائم. إن ما هو مطلوب من المعرفة لاتخاذ القرار الصحيح هو دائمًا أكثر من المتوافر، ولهذا فإننا ونحن نخطط وننظر، نتحرك في منطقة هشة، ونستند إلى معطيات غير كافية.

إن علينا أن نعتقد أننا نقوم بعمل اجتهادي، قد يتبين أنه صواب، وقد يتبين أنه خطأ. وإن كثيرًا من الذين ينفرون من النقد، لا ينظرون إلى هذا المعنى، ولا يهتمون به، ولو أنهم أدركوه بعمق لرحّبوا بالنقد بوصفه كرة أخرى على صعيد الاستدراك على قصور سابق.

ب - هناك دائمًا مفارقة بين النظرية والتطبيق، فنحن حين ننظِّر، ونخطِّط، نقوم بذلك في حالة من الطلاقة التامة. وكما يقولون: « إن الأحلام لا تكلّف شيئًا ». لكن حين نأتي للتنفيذ، يتجلى لدينا القصور البشري بأوضح صوره، فنحن نتحرك داخل الكثير من القيود الزمانية والمكانية. وكما أن أعمارنا محدودة، كذلك إمكاناتنا وقدراتنا وعلاقاتنا أيضًا محدودة، مما يجعل وجود فجوة بين ما نريده وبين ما نفعله أو نحصل عليه أمرًا متوقعًا.

في بعض الأحيان لا ننفّذ ما خططنا له ليس بسبب العجز، ولكن بسبب تغير الرأي، أو بسبب الاختلاف بين أعضاء فريق العمل، أو لأي سبب آخر.. وهذا كله يجعل النقد أمرًا سائغًا، بل مطلوبًا.

جـ - في بعض الأحيان تأتي مشروعية النقد من الأخطاء التي تقع في أثناء التطبيق، أو بسبب مغايرة ظروف الاستمرار لظروف النشأة. وإذا تأملت في أوضاع الأمة وجدت أن كثيرًا مما يحتاج إلى إصلاح وتصحيح يعود إلى هذين السببين، فالتقصير في الواجبات والوقوع في المنكرات من أكثر العوامل تأثيرًا في تخلّف الأمة وتأزّم أوضاعها. وهما يعودان إلى انحراف وقصور في الممارسة. كما أن تجدُّد معطيات الحياة المعاصرة لتكون شديدة البعد عن حياة أسلافنا أوقعنا في أزمات فكرية كثيرة بسبب عدم توافر

ما يكفي من الاجتهاد للتعامل معها. وهذا من جهته يثير الكثير من الحيرة والكثير من النقد.

ماذا يحدث حين يتوقف التفاعل بين النقد والبناء؟ ومتى يكون النقد مفيدًا وبنّاءً؟

إن النظر إلى ما أقمناه وأنجزناه من مناهج ومؤسسات على أنه شيء غير مكتمل يُشكّل المحرّض لنا على نقده وتطويره، لكن يبدو أن الإنسان لا يملك من اليقظة النقدية ما يجعله يتعامل مع إنجازاته ومنتجاته دائمًا على هذا النحو.

إننا كثيرًا ما ننظر إلى نقد شيء يتصل بنا على أنه نقد لذواتنا، بل ننظر إليه أحيانًا على أنه يمس الكرامة الشخصية للواحد منا. أحيانًا لا نقبل بالنقد؛ لأنه سيجعلنا نخسر بعض المكاسب التي حصلنا عليها من وراء أوضاع مغشوشة. وأحيانًا نرفض النقد؛ لأننا لا نثق بالذي ينقد، أو لا نرتاح إليه. وأحيانًا نرفض النقد؛ لأن قبوله سيعني التغيير والتطوير. وهذا لا يتم من غير بذل جهد، ونحن غير مستعدين للقيام بأي شيء إضافي.

بعض الناس يرفض النقد، لأن لديه نوعًا من الإعجاب بالذات والاستبداد بالرأي. وهذا يجعله يستخف بما يسمعه من الآخرين.. مهما يكن السبب الدافع إلى مقاومة النقد فإن النتائج ستكون وخيمة.

إن أي عمل حتى يُؤدى بطريقة صحيحة يحتاج إلى معرفة

تامة بالبيئة المحيطة والعوامل الجغرافية والاجتماعية المؤثرة. وإن هذه المعرفة نحصل عليها في العادة على سبيل التدرّج. ومن ثم فإن الثقة المبالغ فيها في منجزاتنا تقوم على عدم الاكتراث بخطورة ما نجهل. وعلى مدار التاريخ كان الناس يدركون قيمة ما يعرفون أكثر من إدراكهم للأضرار البالغة التي تترتب على ما لا يعرفون. ورفض النقد هو رفض للمعرفة الجديدة.

إن قبولنا لمقترحات الآخرين والسماح لهم ببيان وجوه القصور لدينا، يجعلنا نظهر بمظهر الضعيف أو غير الناضج. أما الاستبداد بالرأي والتمسك بالسائد إلى آخر لحظة فإنه يجعلنا نبدو أقوياء صامدين كأشجار السنديان التي قاومت العواصف مئات السنين. والحقيقة أن قبول النقد يمنحنا القوة لأنه يساعدنا على عمل شيء قبل حدوث الانهيار. إنه يفتح سبيلًا للكف عن السير في نفق مظلم، في آخره مهلكة.

إن سقوط الاتحاد السوفيتي بتلك الصورة المريعة والمهينة ومن غير سابق إنذار، يقدّم حكمة بليغة للمستبدين بآرائهم الرافضين للإصلاح والتجديد والمستخفّين بنصائح أهل البصيرة الثاقبة.

تقول تلك الحكمة: « إن كل الأشجار تموت واقفة شامخة »؛ لأن موتها لا يكون في سقوطها على الأرض،

ولكن في انقطاع مادة الحياة عنها وفي عجزها عن التكيّف مع الظروف المحيطة بها. وإن رفض النقد هو رفض للتكيّف ورفض للاستدراك على الخطأ والتقصير، وهذا ما يجعل السير في طريق الاضمحلال أمرًا لا بد منه!.

الوجه الثاني للمشكلة يكمن في ممارسة النقد بعيدًا عن العمل، وهذا ما يحسنه كثيرون منا. إن حاجة النقد إلى البناء، لا تقل عن حاجة البناء إلى النقد. ولم لا والعلاقة بينهما جدلية. الذي يعمل يقدّم الفرصة للناقد كي يقول شيئًا. والناقد يقدّم فرصة للعامل كي يحسّن عمله، ويرتقي بإنتاجه.

في حالة التخلّف يرفض كثير من الذين يعملون بالنقد، ويتكلم كثير من القاعدين فيما لا يحسنون. في كل مجلس اعتراضات وانتقادات لا تكاد تحصى، ومرور واسع على العالم من شرقه إلى غربه، ومن غربه إلى شرقه، وتشريح لأوضاعه وذكر لمساوئه وأزماته.. وينفضّ السامر، ويذهب كلٌّ إلى بيته، وقد شعر كل واحد منا أنه استطاع أن يثبت سعة اطلاعه ومعرفته بالحلول للمشكلات التي تعاني منها البشرية! وتمضي السنوات، وتنصرم الأعمار، وتأتي أجيال جديدة؛ والنقد ما زال مستمرًا والأوضاع على حالها، بل تزداد في بعض الأحيان سوءًا وفسادًا. وليس هناك من هو مستعد للتوقف من أجل رؤية ما حصلنا عليه من وراء تصويب البنادق إلى أعلى في امتدادات الفضاء!.

إذا أردنا للنقد أن يثمر، ولا يكون شكلًا من التنفيس عن مكروب فحسب فعلينا أن نراعي الاعتبارات التالية:

● النقد المفيد والمنتج هو الذي يتم في ظل البناء. إنه نقد يقوم به البناؤون أنفسهم وأولئك القريبون منهم.

إنهم أدرى بنقاط القوة ونقاط الضعف. وهم أدرى أيضًا بالآلية التي يجب اتباعها من أجل التصحيح.

لكن المشكلة تقع حين يرفض العاملون القيام بأي مراجعة، ويصمّون آذانهم عن سماع أي نصيحة. إنهم في هذه الحالة يحرّضون غيرهم على أن يهرف بما لا يعرف.

ونحن على مستوى الأمة نعاني من بطء حركة اليد وضعف الإنجاز، وهذا يؤدي بطريقة ما إلى تباطؤ عمل العقل وطيش النقد، فبين العقل واليد أيضًا علاقة جدلية. وإن إيجاد محفزات إضافية على العمل سوف يساعد على تنشيط حركة النقد البنّاء.

● الخبرة والتخصص شرط أساسي لجعل النقد بنّاءً؛ إذ إن من الملاحظ أن هناك شهوة قوية لممارسة النقد، وربما كان ذلك لأن النقد يمنح الناقد تفوقًا فوريًا على الأقران والجلساء؛ ومن ثم فإن كثيرًا ممن يوجهون النقد إلى غيرهم لا يملكون أي معرفة بحقيقة الأوضاع التي ينتقدونها. وكثير منهم يعتمد على أخبار صحفية أو تحليلات يسمعونها في القنوات

القضائية، ومن هنا فإن انتقاداتهم كثيرًا ما تكون سطحية، أو أنها تعبّر عن وجهة نظر ضيقة أو منحازة.

إنّ فقر مجتمعاتنا بالمتخصصين، هو المسؤول عن هذه الحالة. نحن لا نستطيع منع الناس من الكلام، ولكن من المهم أن ندرك جميعًا الفرق بين لغو المجالس وبين النقد الجدّي والمفيد.

● لا بد لنا إذا أردنا لنقدنا أن يكون مفيدًا من أن نجعله واضحًا ومحدّدًا. حين لا تعجبنا وضعية من الوضعيات، فإن من المهم أن نذكر ما لا يعجبنا بالضبط، فالصلاح والفساد شيئان نسبيان، ورُبّ شيء ننتقده، يكون أفضل ما تم الوصول إليه بعد جهد وعناء طويل. ونحن ننتقد لنصلح، والإصلاح يتطلب أن نكون قادرين على شرح رأينا بوضوح فيما هو موضع مؤاخذة. وينبغي أن نكون في كثير من الحالات قادرين على تقديم بدائل، نعتقد أنها أفضل مما هو سائد. إن اعتمادنا لهذا المبدأ في النقد سوف يحمينا من أن نتخذ من النقد وسيلة لتفريج همومنا ليس أكثر.

● إن الناقد مجتهد، وعليه أن ينظر إلى نقده على أنه يقبل المراجعة والرد. وليس مَن ننتقده ملزمًا بالموافقة على كل ما نقوله له. وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن ننصح وننتقد على نحو يجعل المنتقَد يتقبّل نقدنا، ويهتم به. وهذا يتطلب

أن نتحدث معه سرًّا وبلطف، ومن غير تكبّر واستعلاء.

إن النقد طعمه مر، والأسلوب الجميل يخفّف من مرارته، ويبرهن على أن ما نسعى إليه فعلًا هو الإصلاح، وليس الحصول على منافع شخصية.

* * *

التربية بالحوار

من الواضح أن العولمة تقوم بعملية تهميش واسعة النطاق لكثير من السلطات التقليدية الموروثة، إنها تهمّش سلطة الدولة، وسلطة المدرسة، وسلطة الأسرة، والمجتمع والقبيلة، وتوسّع في الوقت نفسه من مدى الحرية الشخصية على حساب الرقابة الاجتماعية.

وليس من المهم السؤال: لماذا يحدث هذا؟ وكيف يحدث؟ إنما المهم أن نبحث عن الصيغة الملائمة لمواجهة هذه الوضعية الجديدة.

لا يخفى إلى جانب هذا أننا ورثنا من عصور الانحطاط عادات وتقاليد تربوية لا تتفق مع الرؤية الإسلامية في بناء الفرد والنهوض به، فقد كان يسود في الأسرة في كثير من البيئات الإسلامية نظام شبه عسكري، حيث يُسكت الرجل المرأة، والأخُ الأكبر الأخوةَ الصغار، ويُسكت الصبيان البنات.. أضف إلى هذا اللجوء العام إلى الصمت ما لم تحدث مشكلة، فينتبه الأبوان إلى ضرورة الكلام من أجل العلاج!

أما في الكتاتيب والمدارس، فقد ساد التلقين، وقل البحث والتنظير، كما ساد الكبت والضرب. وكان من المألوف في العديد من البيئات الإسلامية، أن يقول الأهل لشيخ الكتّاب

إذا دفعوا إليه بالصبي: « لك اللحم ولنا العظم ». أي: لك أن تضرب حتى لو أدى ذلك إلى تمزق اللحم. أما العظم فليس من حقك كسره. وكأن الوالد هو الذي سيقوم بتلك المهمة، لتكتمل دائرة العنف على الطفل المسكين!

وساد كذلك لدى بعض التيارات والتوجهات الإسلامية المهتمة بتربية النفوس الاستسلام للشيوخ والتماس الأعذار والتأويلات لما يقومون به، ولو كان ينطوي على مخالفة شرعية ظاهرة. ومن العبارات المشهورة في هذا قولهم: « من قال لشيخه: (لِمَ) لَمْ يُفلح أبدًا »!.

وكانت نتيجة تلك التربية تخريج أجيال يسيطر عليها اليأس والخوف والاتكالية وانتظار المساعدة عوضًا عن تقديمها. أجيال لا تُحسن التعبير عن أفكارها وحاجاتها وآرائها، ولا تشعر بذواتها وإمكاناتها.

وكانت عاقبة كل ذلك انحدار مكانة الأمة بين الأمم، وطمع الأعداء فيها، وانتشار التعانف والتقاتل في ديارها عوضًا عن التراحم والتعاون والتناصح والتدافع بالتي هي أحسن وأرفق.

لدينا مصطلح (الحوار) ومصطلح (الجدال) ولهما دلالة مشتركة على دوران الكلام بين طرفين وترجيعه بين شخصين أو فريقين، لكن نلمح في العديد من النصوص والأدبيات أن الجدال كثيرًا ما يميل إلى الخصومة في الكلام،

كما ينطوي على حرص كل واحد من المتجادلين على غلبة خصمه وإفحامه وإلزامه الحجة وبيان خطئه. ونتيجة لهذا فإن من المألوف أن يقع خلال الجدل بعض الظلم والادعاء والكذب والتطاول واستخفاف أحد المتجادلين بالآخر. وقد قال اللَّه – جلَّ وعلا –: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣].

ومن هنا وجَّهنا – سبحانه – إلى أن نجادل المجادلة المقيَّدة بالأدب الإسلامي الرفيع، والمجادلة بالحق الساعية إليه؛ حيث قال: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما الحوار فمع دلالته على تردد الحديث بين اثنين إلّا أنه لا يحمل صفة الخصومة وإنما يحمل صفة الحرص على العلم والفهم والاطلاع. إن الدافع الأساسي للمُحَاوِرِ الجيد ليس إقناع من يحاوره بوجهة نظره وجعله يقف إلى جانبه، وإنما دافعه الأساسي أن يُرِي مُحاوره ما لا يراه، وأن يظفر من محاوره أيضًا بأن يكشف له غموض أمور لا يراها ولا يعرفها.

إن كلًّا من المتحاورين يطلب الوضوح ومعرفة الحق والحقيقة. ولا شك في أن بعض الحوار قد ينقلب عند الانفعال وتوافر اعتبارات معينة إلى جدل عقيم ومقيت. كما

أن بعض الجدل قد يتّسم بالرفق والحكمة.

إن الحوار لا ينبغي أن يكون أسلوبًا نستخدمه داخل الأسر والمدارس من أجل تربية الصغار وتعليمهم فحسب، وإنما ينبغي أن يكون أسلوب حياة، يسود في الأسرة، والمدرسة، والمسجد، ووسائل الإعلام، وفي الشركة والمؤسسة، والدائرة الحكومية.

إن الحوار حيوي للجميع، وإن غيابه عن حياتنا سوف يؤذي الجميع؛ وذلك لأن البديل سيئ جدًّا، وهو كثيرًا ما يكون القهر والكبت والانعزال والأنانية، واتباع الهوى، وتصلُّب الذهن، ومحدودية الرؤية، وإعجاب كل ذي رأي برأيه!.

يمكن القول: إنه لا يكاد يخلو بيت أو مؤسسة أو مدرسة من شيء من الحوار، لكن السؤال هو: هل كل حوار يؤدي إلى تربية جيدة؟ وهل أي حوار - مهما كان - يعدُّ كافيًا لزرع المفاهيم والقيم والعادات الجيدة في شخصيات الصغار والكبار؟ طبعًا لا.

إن الحوار الذي يُربّي فعلًا هو الحوار الجيد والعلمي والموضوعي والقائم على أسس أخلاقية جيدة. حين يتوافر الحوار الجيد والمديد والمستمر فإنه يولّد، ويقتضي بطريقة غير مباشرة عددًا ممتازًا من الأفكار والمفاهيم والرؤى والمبادئ

والعادات والسلوكات الصحيحة والراشدة.

وإذا تساءلنا عن الشروط التي يجب توافرها من أجل حوار ناجح ومثمر أمكننا أن نعثر على الآتي:

١ - الإيمان العميق بأن لكل إنسان أن يعبّر عن ذاته، وأن يدافع عن قناعاته في إطار المبادئ الكبرى المجمع عليها. وإتاحة الفرصة للمرء كي يعبّر عن قناعاته ومزاجه.. شرط جوهري لنمو الحياة العقلية والروحية، كما أنه شرط لشعور الطفل بكرامته وإنسانيته.

٢ - حتى يصبح الحوار أسلوب حياة يجب أن نؤمن بأن الواحد منا مهما بلغ من التحصيل العلمي، ومهما كانت عقليته ممتازة، فإنه في نهاية الأمر لا يستطيع أن يصدر إلّا عن رؤية أحادية محدودة. وذكاء الجماعة أشمل من ذكاء الفرد. وبالحوار نستطيع معرفة رأي الجماعات والمجموعات، والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء.

٣ - من المهم حتى يصبح الحوار أسلوب حياة أن نوطّن أنفسنا لقبول النقد. فقد يوجه التلميذ في المدرسة في أثناء الحوار انتقادًا لأسلوب التدريس، أو ينتقد عدم كفاية استخدام المدرس لوسائل الإيضاح.. وكذلك يتعرض الأبوان في الأسرة إلى شيء من الاعتراض والمراجعة حول مجمل قراراتهما في إدارة شؤون الأسرة ومعالجة مشكلاتها. وحين

نفقد روح التسامح والمرونة الذهنية المطلوبة لذلك فإننا سننظر إلى الحوار على أنه باب لإساءة الأدب من قِبَل الصغير مع الكبير، وسيكون البديل آنذاك هو التعسف والاستبداد.

حين نحاور الأطفال في البيوت والمدارس، ونعتمد أسلوب الحوار في مجالسنا وإداراتنا ومؤسساتنا نحرز عددًا لا بأس به من النجاحات التربوية على الصعيد الفكري وعلى الصعيد العقلي وأيضًا على الصعيد الاجتماعي.

بالحوار الناجح والموضوعي والمستمر نتمكن من تنمية الحس النقدي لدى الأطفال في البيوت والمدارس. والحقيقة أن ما يتم من مراجعات ومجادلات بين المتحاورين يعد وسيلة مثالية للوصول إلى هذا الغرض. لا يعني النقد اكتشاف السلبيات فحسب، بل يعني اكتشاف السلبيات، واكتشاف مساحات الخير والحق والجمال في الأقوال والمواقف والعلاقات والأشياء.

حين يسمع الأطفال وجهات نظر متباينة ومتعددة في الموضوعات والقضايا المطروحة للنقاش، فإنه تنمو لديهم القدرة على الموازنة. والموازنة - كما يقولون - هي أم العلوم. ومن خلال نمو الموازنة تتشكل رحابة عقلية جديدة لا يمكن بلوغها من غير هذه السبيل.

حين ندير حواراتنا على نحو جيد فإننا بالحلول الوسطى

والآراء المعتدلة نشيع في حياتنا الرؤى المتدرجة، كما نشيع القابلية العقلية لإدراك ما في الأشياء من نسبية. وأعتقد أن تخفيف الاحتقان والتوتر الاجتماعي، وكذلك تخفيف التوتر السائد في علاقاتنا مع المنافسين والخصوم على المستوى الدولي يتطلب أن نؤسس في نفوس وعقول الصغار والكبار أن الخير في الناس، وكذلك الشر ليس مطلقًا؛ حيث لم يجعل اللَّه - جل ثناؤه - الفضائل حكرًا على أمة أو جيل أو مجتمع، كما أنه لم يجعل الرذائل كذلك. ويتطلب كذلك أن نؤسس في الأذهان أن هناك واجبًا دون واجب، وحرامًا دون حرام، وأذى دون أذى، ونجاحًا دون نجاح، وإخفاقًا دون إخفاق..

وأعتقد أنه في زمان شديد التعقيد وكثير الغموض بات الأطفال - على نحو أخص - بحاجة إلى تربية تنمي لديهم فقه الموازنات. وهذا الفقه يقوم على عدد من المبادئ المهمة، منها:

- لكل شيء ثمن، وهذا الثمن قد يكون وقتًا، وقد يكون جهدًا، وقد يكون مالًا، وقد يكون سحبًا مما لدى المرء من رصيد الالتزام أو الكرامة أو السمعة..

- ضرورة العمل على تحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين؛ فقد نفوِّت خيرًا أصغر من أجل الحصول على خير أكبر، وقد ندفع شرًّا أكبر بالوقوع في شر أصغر، وقد نحتمل

الضرر الأصغر من أجل تحاشي الوقوع في ضرر أكبر.

من خلال الحوار بوصفه صبغة عامة للاتصال والمعايشة نتبادل رسالة عظيمة قائمة على نفسية الرخاء وعقلية السعة؛ حيث يوقن الجميع أن في إمكان المرء تحقيق ذاته والوصول إلى أهدافه وبلورة آرائه على الرغم من إتاحته الفرصة للآخرين بأن ينقدوه ويجادلوه، ويعترضوا على بعض ما يقول.

وعلى العكس من هذا فإنه حين ينعدم أو يضعف الحوار في مؤسسة أو أسرة أو مدرسة.. فإن كل واحد من الذين يعيشون في تلك المحاضن يشعر بالعوز والضيق وقلة الفرص، ويسود اعتقاد بأن تقدُّم فلان ونجاحه لا يتم إلّا على حساب الآخرين، كما أن نجاح أي واحد من الأقران والزملاء لا يتم إلّا إذا تضرّر وتراجع!. وهذا بسبب سيطرة فلسفة خفيّة توحي للناس بأنه ليس في الأرض من الخير ما يكفي لإسعاد الجميع، فتسيطر عقلية الشُّح حتى في الأفكار والآراء، فالأمور محسومة، فإما أن يكون الحق معي أو معك، وإما أن أكون أنا على الطريق الصحيح وإما أن تكون أنت، حيث لا يتوافر لدينا طريق ثالث!

أما حين يسود الحوار فسيدرك الناس ولو بطريقة غير واضحة أن هناك دائمًا طريقًا ثالثًا وفكرة معدلة، حيث إنه ما احتك مفهوم بمفهوم مناقض إلّا أمكن أن يتولد عن هذين المفهومين مفهوم ثالث، هو أرقى منهما؛ لأنه ثمرة لرؤية

مشتركة، ونتيجة لتلاقح العقول الفذة. ولنتأمل في قول الله - جل وعلا -: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

إننا بالحوار نكتشف القواسم المشتركة، ونجد أن الذي يقف في أقصى اليمين يتواصل على نحو ما مع الذي يقف في أقصى اليسار؛ لأن الحوار يتطلب بطبيعته بلورة قواعد جديدة واكتشاف أرضيات لم يسبق لنا عهد بها. إن الحوار بالنسبة إلى الكبار أشبه باللعب بالنسبة إلى الصغار، ولو أنك أعطيت مجموعة من الأطفال دراجة - مثلًا - ليلعبوا عليها فإنك ستجد أنهم خلال دقائق توصلوا إلى بلورة قاعدة لتداولها والاستمتاع بها.

وهكذا نحن الكبار فإننا في حوارنا المتواصل بعضنا مع بعض ومع أسرنا وأطفالنا نستطيع بلورة العديد من المبادئ والأدبيات والرمزيات التي تجمع بيننا، وتقرّب بعضنا مع بعض.

إن الحوار يحجّم الخلاف في العديد من الأمور، ويزيل سوء الفهم وسوء التقدير وسوء الظن الذي يسود في حالات التدابر والتجافي. وهذا يمهد الطريق للتعاون والتعاضد والعمل معًا، وكأننا فريق واحد. ولا بد هنا من أن أشير إلى نقطة مهمة، وهي أن الحوار يُنعش فيمن نربيهم ونعلّمهم

الشهية لطرح الأسئلة؛ حيث إنه بطبيعته يتضمن ما لا يحصى من الأسئلة. إن المحاور يستفهم من محاوره عن بعض الغوامض، ويطلب منه الدليل على بعض ما يورده من أقوال وآراء ومسائل، كما أنه كذلك يعترض من خلال الأسئلة على بعض ما يقوله محاوره.. وهذا كله يمرّن الأطفال والناشئة والشباب والكبار على أن يفضوا بما في أنفسهم، وأن يسألوا عن الأشياء غير المنطقية وغير المستساغة مما يرون ويسمعون. والحقيقة أن كثيرًا من ينابيع الحكمة يتفجّر وكثيرًا من شرارات الإبداع والابتكار ينقدح ويتوهج من خلال الأسئلة التي يطرحها النابهون والسائرون في دروب النجاح والتفوق.

إن طريق الحوار هو طريق المستقبل، هو طريق النهوض وطريق الفهم العميق والرؤية الثاقبة، كما أنه طريق التآخي والتعاون، وإذا لم نسلك هذا الطريق، فقد يكون الطريق الذي نسلكه هو طريق التباغض والتجافي والتعانف والانغلاق وسوء الفهم. وهذا ما لا يتناسب مع الرؤية الإسلامية للمستقبل، كما لا يتناسب مع الأدبيات الإسلامية في العلاقات الاجتماعية.

* * *

بناء الثقة

تشكِّل (الثقة) بين الناس رأسمال اجتماعي في غاية الأهمية، وقد فطر اللَّه - تعالى - العباد على أن يثق بعضهم ببعض، وأن يحملوا ما يسمعونه على الصدق. لكن التجارب السيئة تعلِّم الناس كيف يدققون في مسموعاتهم، وكيف يرتابون ويترددون. إذا فقد الناس الثقة في تعاملاتهم، فإن هناك شكوكًا كبيرة في قدرتهم على استعادتها. وقد يستغرق ذلك جيلين أو ثلاثة، وقد لا يكون ممكنًا أبدًا.

ومن هنا فإن تعزيز الثقة في المجتمع الإسلامي يشكِّل مسؤولية عامة. ويتحمل الدعاة والخطباء والمتحدثون والموجهون التربويون قسطًا مهمًّا من هذه المسؤولية. وأعتقد أن (المصداقية) بكل تجلياتها تشكل المدخل الأساسي لذلك.

وأحيانًا نعبر عن الثقة بالمصداقية بسبب شدة التداخل بينهما. وأود أن أبدي في هذا السياق الملاحظات التالية:

١ - الصدق بوصفه مطابقة إخبار المرء لمعتقده، يعد حجر الزاوية في بناء الثقة. ومن المهم في هذا الإطار أن نكون دقيقين في تعبيراتنا عن مكنونات أنفسنا. فإذا كان الواحد جازمًا عبّر عن ذلك بصيغة الجزم. وإذا كان يغلب على ظنه وقوع أمر، قال: أظن ذلك، أو يغلب على ظني

ذلك، أو أميل إلى رؤية ذلك.. وإذا كان شاكًّا فليقل: أشك، أو أنا متردد في ذلك، أو الأمر أمامي ليس واضحًا.

إن النفوس تعزف عن التعبيرات الرخوة؛ لأنها تُشعر الناس بحالة من عدم اليقين، وبأنهم يقفون على أرض هشة؛ لكن القيام لله - تعالى - بالقسط لا يكون إلّا إذا فعلنا ذلك. الدقة في التعبير منتج حضاري ودلالة على النضج المعرفي والمنهجي، ويمكن أن نتخذ منها معيارًا لما وصلنا إليه من رقي وتقدم.

٢ - مما يدعم الثقة بالمتكلم أن يحرص على أن يكون كلامه مطابقًا للواقع. وهذا اليوم ليس بالأمر السهل، حيث تعقّد الكثير من الأمور، وزاد التباسًا. وكلما كان ما نخبر عنه يميل إلى أن يكون ظاهرة أو وضعية عامة كانت مهمتنا أعظم مشقة. حين يتحدث خطيب أو واعظ عن الأمية أو البطالة أو الإعراض عن القراءة واصطحاب الكتاب.. فإنه يتحدث عن قضايا كبرى، لها تعريفات وتفصيلات كثيرة، وأجزاء منها محجوبة وغامضة.

الظواهر الكبرى تكثر حولها الأرقام والإحصاءات. ونظرًا لأهمية الرقم في كشف الواقع، ونظرًا للبلاغة الفريدة التي يتمتع بها، فإن الناس يتداولونه على نحو مفرط، وهذا يؤدي إلى تعرضه للكثير من الغلط والتشويه. ثم إن طبيعة الأرقام

تسمح للمغرضين بالتلاعب بها دون أن يتمكن الناس من معرفة ذلك؛ ولهذا فإن هناك جهات عديدة تتاجر بالأرقام، وتزيد فيها، وتنقص منها بحسب مصالحها الخاصة. ومن هنا فإن من المصداقية التحلي بالحذر عند الإخبار عن الواقع. أما بالنسبة للأرقام الدالة على ملامح بعض الظواهر الكبرى فإن من المنهجية أن نتعامل معها على أنها مؤشرات للواقع ليس أكثر. وكثيرون منا لا ينتبهون إلى هذه النقطة.

إذا قدّم أحدنا رأيًا أو اقتراحًا أو مشروعًا إلى جهة ما فإن من المصداقية أن يبذل جهده في بلورته وإنضاجه. والحقيقة أن الإتقان من المصادر المهمة لبناء الثقة. وحين تتمكن جهة ما من إنتاج أشياء متقنة، فإنها تكتسب مصداقية عالية، وتقبض ثمن تلك المصداقية في ارتفاع قيمة منتجاتها لتكون أضعاف قيمة منتجات شركات وجهات لم يُعرف عنها الجودة والإتقان العالي.

نحن في كثير من الأحيان نُؤْثر الكم على الكيف، ونبدو وكأننا في عجلة من أمرنا، مما يجعل مصداقية ما نكتبه ونقوله ونصنعه ضعيفة أو معدومة.

٣ - لا يحوز أي إنسان على المصداقية إذا لم يكن يملك نوعًا من التطابق بين قوله وفعله. وإن حساسية الناس نحو هذه المسألة عالية جدًّا، والقرآن الكريم واضح في هذا، حيث

قال - سبحانه -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

إن كل شكل من أشكال المعصية يؤسّس في حياة صاحبه لشكل من أشكال ضعف المصداقية؛ وذلك لأن المعصية تعلن عن نوع من الفصام والمفارقة بين المعتقد والسلوك. كيف يمكن للناس أن يتقبلوا كلام إنسان عن أضرار التدخين، وهو يدخن؟! وكيف يمكن لهم أن يتقبلوا كلامه حول أهمية الصلاة في المسجد وهو يتخلّف عنها؟

٤ - يشهد عصرنا فورة للدعاية والإعلان؛ حيث ينفق العالم سنويًّا في هذا النشاط ما يزيد على أربعمائة مليار دولار. إن انتشار الدعاية على هذا النحو من السعة قد أضعف المصداقية وأوهن الثقة؛ حيث تتحدث الدعاية باستمرار عن مزايا غير موجودة، أو تضخم في تعداد مزايا قائمة. وقد بدأ الناس يكتشفون الزيف الذي ينطوي عليه الإعلان، ومن ثم فإن نسبة التصديق لما يقال آخذة في الانخفاض.

وقد ذكرت إحدى الدراسات الأمريكية أنه خلال عشر سنوات (من ١٩٨٦م - ١٩٩٦م) انخفضت نسبة من يصدِّق بمضمون الدعاية من (٦١٪) إلى (٣٨٪)!

التقدُّم الحضاري الذي يحدث اليوم وسَّع في طموحات الناس وتطلعاتهم، ومن ثم فإن أشخاصًا كثيرين وجدوا أنفسهم منغمسين في الكذب والرشوة والخداع والسرقة.. من أجل إشباع رغباتهم؛ وهذا جعل المصداقية في حالة صعبة.

إن ما هو موجود في مجتمعاتنا من مصداقية وثقة يحتاج إلى تدعيم ورعاية دائمة، وإلّا فقدنا المزيد منه، ومع فقده نفقد الكثير من المعاني الجميلة.

* * *

المجتمع المتمدِّن

مما يلفت انتباه المراقب لشؤون الثقافة لدينا ذلك الإعراض عن الاهتمام بالشأن الاجتماعي، وكل ما فيه من معنى الغيرية، فوعي الناس غارق في الاهتمام بالشأن الشخصي. وهذا يعود إلى ضعف التربية الاجتماعية لدينا، حيث التركيز شبه المطلق على النجاح الشخصي. وكأن المثل العربي القديم: « انجُ سعد فقد هلك سعيد » قد بات يشكِّل المنهج غير المعلن للأنشطة التربوية والتحركات اليومية. ولا بد لهذا الأمر أن يثير الأسى والأسف لدى المراقب لأوضاع أمة، يقول نبيها ﷺ: **« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »** [1]. وقد أصبحت كلمة (الأخوة الإسلامية) و (الأخوّة في اللّه) خالية من الجاذبية وخالية من المضمون أيضًا. أما المطالبة بتحقيق معنى (الإيثار) في حياتنا اليومية، فقد صارت تثير الدهشة وأحيانًا الإشفاق!

هذا كله يعني أن إرثنا الحضاري العريق في التعاطف والتراحم والتعاون آخذ في التآكل دون أن نحدث مبادرات كبرى للحفاظ على ما تبقى منه. قد يكون لغياب الرؤية

---

(١) أخرجه مسلم، رقم (٢٥٨٦).

الثقافية الإستراتيجية دور أساسي في هذا. وقد يكون لضغوطات الواقع والظروف الصعبة التي نمر بها تأثير في ذهولنا عن العديد من المسائل الكبرى التي علينا أن ننشغل بها، ومنها مسألة التلاحم الأهلي.

الإحساس بالفراغ، يدفع دائمًا في اتجاه البحث عن الامتلاء؛ وهذا ما يحدث اليوم، فقد صار من المتداول اليوم مصطلح (المجتمع المدني) وهو يعني من حيث المبدأ نسيجًا متشابكًا من العلاقات التي تقوم بين أفراده على أساس من التفاهم والتراضي وتبادل المصالح والمنافع والمطالبة بالحقوق وأداء الواجبات وتحمّل المسؤوليات إلى جانب مراقبة الأنشطة العامة ومحاسبة المقصرين وملاحقة الفساد والمفسدين. وهذا المفهوم للمجتمع المدني منسوخ من المفهوم الغربي مع شيء من القصور والتشويه.

وقبل أن أبدي بعض الملاحظات على مدلولات هذا المصطلح أود أن أوضح أن المجتمعات الإسلامية السابقة على عصور الانحطاط كانت تستمد حيويتها وخيريتها وصيانة مصالحها من عدد من المصادر المرتكزة على الإيمان بالله - تعالى - والتشبُّع بالروح الإسلامي والمنهج الرباني الأقوم. ومن جملة تلك المصادر أن الناس كانوا على نحو عام يعيشون في تجمعات سكانية صغيرة، وكان يغلب عليهم الفقر أو ما هو قريب منه.

إن العيش في تجمعات محدودة كان يُسهِّل عملية التواصل والتآزر إلى حدود لا تخطر اليوم بالبال. وإن الفقر هو دائمًا ثقافة شعب على حين أن الغنى ثقافة صفوة. ومن خلال ثقافة الفقر كان التواسي وكانت المصارحة والمكاشفة، فالكل مطَّلع على أحوال الجميع، مما يجعل إمكانية الإصلاح أسهل، ويجعل الشعور بوحدة المصير أعظم. وكان الوقف الإسلامي هو التعبير الدقيق على إرادة الخير والشعور بالآخرين، والتعبير الدقيق عن العمل على النفس الطويل.

وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب نظام الحسبة يعبّر بعمق عن التكافل الخلقي وعن مشروعية تدخّل كل فرد من أفراد المجتمع في الشأن الاجتماعي العام بما يحقق المصلحة ويدرأ المفسدة. وهذه المعاني والإجراءات والأطر هي التي كانت تمنح المجتمع الإسلامي الجاذبية والتماسك والاطمئنان كما كانت تساعد الناس على تحمّل أعباء الأخطاء التي كانت تُرتكب على صعيد السياسة والاقتصاد.

هذا كله قد تراجع في حياتنا، مما جعل بعض المثقفين يبحثون عن صيغ وفعاليات جديدة لإنعاش الحياة الاجتماعية والحيلولة بينها وبين مزيد من التدهور. ومع اعتقادنا بحاجة أوضاعنا إلى الكثير من الإصلاح، وحاجتها بالتالي إلى كثير من الأفكار وكثير من الناشطين وكثير من الصيغ.. **إلّا أنني أود أن ننتبه إلى ثلاثة أشياء:**

١ - أن النقطة الثابتة التي تتمحور حولها كل الأفكار والمؤسسات والأنشطة في المجتمع المدني في الغرب هي الإنسان كما تصوّره الفلسفات الغربية وكما بلورت حقوقه وحاجاته وواجباته الخبرة المستخلصة من التجارب هناك. وهي فلسفات لم تنشأ في غياب الدين والوحي فحسب، وإنما نشأت على خلفية العداء لهما.

أما المـجتمع المتمدن في الرؤية الإسلامية، فهو مجتمع يقوم على حب اللَّه ورسوله، والالتزام بأحكام الشريعة وآدابها، كما يقوم على الرحمة وليس على المنافسة، وعلى التعاون وليس على الاستئثار. ومن هنا فإن المطلوب لمجتمعاتنا ليس مطابقًا لما قد يكون مُرضيًا لمجتمعاتهم.

٢ - في الغرب حديث طويل عن محورية حقوق الإنسان ومكانتها في المجتمع المدني، لكن لا نجد أي حديث عن حقوق اللَّه - تعالى - أما عندنا فإن أداء المسلم لحقوق اللَّه شرط أساسي في الحكم على تمدنه وتحضّره. وحقوق الإنسان نفسها شيء يُفهم من المنهج الرباني الأقوم.

٣ - الناشطون في مجال العمل على إيجاد المجتمع المدني غارقون في المطالبة لغيرهم بتحقيق بعض الأشياء وتغيير بعض القوانين، وهم بذلك يهتمون بالجانب السلبي من القضية، ولا نجد لهم تحرّكًا يذكر على صعيد البناء والتنمية.

إن المجتمع لا يقوم من خلال توفير حرية التعبير وحرية الحركة والاجتماع فحسب، إنه يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير. إن المجتمع حتى يصبح مدنيًّا أو متمدنًا يحتاج إلى ما لا يحصى من المؤسسات الخيرية والطوعية واللاربحية. الناس يحتاجون إلى مؤسسات وأطر تربوية وتعليمية وإغاثية ودعوية ترتقي بهم وتؤهلهم لعيش زمانهم بكفاءة واستقامة. والمجتمعات الإسلامية في ظل الحضارة الإسلامية الزاهية كانت كذلك. والمجتمعات الغربية تقوم أيضًا على عدد ضخم جدًّا من المبادرات والمساهمات الأهلية المجانية.

تمدُّن المجتمع شيء مهم وعاجل، لكن يجب أن يقوم على أسس صحيحة حتى يتفاعل معه الناس ويسهموا في ورش بنائه.

* * *

بناء النماذج

إذا تساءلنا: ما المقياس الذي يمكن على أساسه أن نقول: إن هذا المجتمع مجتمع فاضل أو مجتمع رديء أو سيئ؟

قد لا يكون الجواب سهلًا. وإذا وصلنا إلى جواب فلن يكون حاسمًا. لكن علينا في كل الأحوال أن نجتهد.

في اعتقادي أن المعيار الذي يمكن التعويل عليه في هذا الحكم يقوم على مدى اتساع الشريحة المهتمة بالشأن العام. الشريحة التي تعتقد أنَّ تقدُّم مجتمعها يشكل جزءًا من همومها وجزءًا من تقدّمها الشخصي. كلما كانت تلك الشريحة أكبر وأعظم فاعلية تحسَّن الوضع الاجتماعي، ودل ذلك على نبل الناس وحبهم للمعروف، والعكس صحيح. وقد ورد عن بعض الصحابة - رضوان اللّٰه عليهم - أنه ما من صحابي إلّا أوقف شيئًا في سبيل اللّٰه. وإذا صح الخبر فإنه يدل على حالة فريدة على مستوى العالم في كل زمان ومكان. ولا يستغرب من الجيل الفريد فِعْل مثل هذا على هذا النحو المذهل!.

في كثير من مجتمعاتنا اليوم تحركات نشطة من أجل إقامة مؤسسات المجتمع المدني. وهذه التحركات - في الجملة - تحمل بعض المؤشرات الإيجابية. لكن الملاحظ أنها تركز على

المطالبة ببعض التغييرات القانونية وتحتجُّ على بعض الأوضاع السيئة. ولا شك في أن هذا قد يكون مطلوبًا أو ذا أولوية في بعض البلدان، لكن السؤال الذي يلحُّ عليَّ هو: إذا كانت نسبة خمسة في الألف من الناس صالحة للانخراط في مجال الإصلاح السياسي والقانوني، فما دور الأعداد الهائلة من المسلمين في إقامة المجتمع الفاضل أو المتمدن؟

إذا تأملنا في الواقع النفسي لمعظم المسلمين لوجدنا أن لديهم نزوعًا قويًّا إلى الخير، ورغبة ظاهرة في تقديم شيء ينتفع به عامة الناس، **لكن عندنا مشكلتان:**

الأولى: ضعف روح المبادرة وضعف التفكير العملي لدى السواد الأعظم من شبابنا ورجالنا. وهذا سببه التخلّف الشامل الذي نعاني منه.

الثانية: هي أن الناس لا يعرفون - فعلًا - كيف يخدمون المجتمع، كما لا يعرفون كيفية اختيار النشاط الخيري الذي يلائمهم، ولا كيفية تأهيل أنفسهم ليصبحوا أشخاصًا منتجين وفعّالين. ومعهم كل الحق في ذلك، فالأسرة لدينا لا تعرف إلّا القليل عن التربية الاجتماعية؛ والمدارس والجامعات، لا تُقدّم لهم أي مادة أو منهج يساعدهم على تطوير أنفسهم أو على الاهتمام بالخدمة العامة. وزاد الطين بلة أن العالم الإسلامي فقير جدًّا في المؤسسات والأطر والهيئات التي يمكن للفرد أن ينتمي إليها كي يقدم خدمة

لفقير أو مسكين أو معوق، أو يسهم في عمل يحسِّن البيئة التي يعيش فيها. وحتى يعرف القارئ الكريم مدلول ما أقول فيكفي أن يعلم أن (١١٪) من القوى العاملة في (إسرائيل) يعملون في مؤسسات (لا ربحية) أي مؤسسات ذات نفع عام. فكم نسبة العاملين لدينا؟!

السؤال الآن: من أين نبدأ في تحريض ذوي النيّات الحسنة والهمم العليّة على أن يبدؤوا عهدًا جديدًا في حياتهم الشخصية يكون فيه للعطاء غير المشروط جزء من اهتمامهم ومن برامجهم اليومية؟

- قد تكون البداية في أن نُثري الساحة الثقافية بالنماذج والتجارب في مجالات النجاح الخاص والمشروعات الشخصية والأعمال والمبادرات الخيرية. يقوم النموذج المطلوب على توضيح معالم نشاط خيري يمكن أن يلائم شخصًا له مواصفات وأوضاع معينة. **ونحن في حاجة في الحقيقة إلى نوعين من النماذج:**

● نوع هو عبارة عن خبرات وتجارب موجودة لدى أناس عملوا في المجال التطوعي. يشرحون في ذلك النموذج بداياتهم، والإمكانات التي استخدموها، والأوقات التي شغلوها إلى جانب الثمرات والمنجزات التي حققوها، بالإضافة إلى بيان العقبات والصعوبات التي واجهتهم. وإذا نظرنا إلى أعداد الذين لديهم خبرات من هذا النوع على امتداد الساحة

الإسلامية، فسنجد شيئًا هائلًا، لكن بما أننا أمة لا تحتفل اليوم بقراءة ولا كتابة فإن معظمنا لا يسجلون تجاربهم ولا ينشرونها. ولكن لا بد لهذا الأمر من أن يتغير إذا أردنا أن نساعد في نشر الخير.

● **أما النوع الثاني** فهو عبارة عن مخطط نظري يضعه شخص يتمتع بالخيال الخصب مع قدر جيد من المعرفة بالواقع وبحاجات الناس. **إن أي نموذج تتم بلورته يجب أن يتصف بالصفات الآتية:**

١ - الوضوح التام:

وحتى يكون النموذج واضحًا فإنه ينبغي أن يعرف من يريد تطبيقه التكاليف المادية المطلوبة وساعات العمل، وهل هو فردي يستطيع المرء تنفيذه بنفسه أو هو جماعي، يحتاج إلى فريق عمل؟

٢ - أن يكون واقعيًا عمليًا أي ممكن التطبيق وليس تعجيزيًا:

إن المشروع أو النموذج الجيد دائمًا يتحدّى، لكنه لا يُعْجِز. وكثير من النماذج أخفق، وانفضّ عنه الناس بسبب جموح خيال من اقترحه.

٣ - أن يكون مشروعًا وقانونيًا:

وهذه نقطة مهمة؛ لأن الذي يقوم بأعمال خيرية لا تسمح بها النظم السارية، يعرّض نفسه لمساءلة هو غني

عنها. ثم إنه لا يستطيع حشد المناصرة لنموذجه إذا لم يكن الإقدام عليه خاليًا من الشوائب. نحن في حاجة إلى نماذج من كل الأشكال والألوان حتى تتلائم مع التنوع الهائل الموجود في واقع الحال.

هذا طبيب يود أن يسهم في عمل دعوي أو إغاثي أو اجتماعي، ويريد أفكارًا عملية تساعده على النهوض لما يرغب فيه. لكن أوضاع الأطباء ليست واحدة؛ فهذا طبيب ثري، يستطيع أن يسافر إلى بلد منكوب على نفقته الخاصة، ويأخذ معه بعض الأدوية. وهذا طبيب فقير، لا يملك المال فما النموذج الذي يلائمه؟ هذا طبيب موظف لا يستطيع التحكم التام بوقته. وهذا طبيب يعمل في عيادته الخاصة، ووقته ملكه.. وقُلْ مثل هذا في الطالب الجامعي والمدرّس والمهندس والموظف والمزارع ورجل الأعمال والمهني. وقُلْ نحوًا من هذا في المرأة الموظفة والمرأة التي ترعى أسرتها، والمرأة التي لم تتزوج.. إن كل هؤلاء يحتاجون إلى نماذج تساعدهم على التطوع. إن (الإنترنت) يشكّل وسيلة عملاقة لنشر النماذج والمشروعات والمفاهيم وبأرخص التكاليف.

إني أقول لكل أولئك الذين آتاهم الله - تعالى - موهبة خاصة أو إمكانية جيدة: إن النجاح في خدمة الأمة عبر نشاط من الأنشطة أو داخل إطار من الأطر يحتاج إلى

الإخلاص والاحتساب إلى جانب الإرادة الصلبة والمثابرة، وإعطاء المشروع الخيري الشخصي شيئًا من الأولوية. وأقول أيضًا: إننا لم نستطع القيام بالكثير مما نحتاج إلى القيام به بسبب الخوف من أن نخطو الخطوة الأولى، فنخفق، ونصبح موضع لوم الناس ومؤاخذتهم. إن الباحث عن مرضاة اللَّه - تعالى - يحاول ويجرِّب ويطرق كل الأبواب، وله على كل ذلك أجر بقطع النظر عما قد يصيبه من نجاح أو ما يلاقيه من إخفاق.

إن أمة الإسلام بحاجة إلى عقل المهندس، ومبضع الجراح، وحرقة كحرقة الأمهات، فما الذي يمكن لكل واحد منا أن يقدمه على هذا الصعيد أو ذاك؟

* * *

دول أم كتل؟

نحن نعيش في عصر جديد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ما في هذا شك ولا ريب. ونحن مطالبون باكتشاف ملامح هذا العصر، وما يفرضه من متطلبات وتداعيات. وحين نتمكن من ذلك فإن الخطوة التالية تتمثل في إعادة برمجة وهندسة أحلامنا ورغباتنا وطموحاتنا بما تسمح به الظروف الجديدة، وإلّا فإن تحقيق ما نصبو إليه يصبح بعيد المنال، ويصبح العمل من أجله نوعًا من هدر الوقت والجهد.

تقوم العولمة بعملية خلع وتفكيك واسعة النطاق، إنها تخلع الفرد من أسرته، والأسرة من مجتمعها، والمجتمع من أمته. وخلال هذا الخلع يحدث نوع من التهميش لكثير من القوى الجامعة والضابطة والمسيطرة، وذلك من أجل تكوين كتل ضخمة تكون لها السيطرة والنفوذ على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية.

العولمة تهمّش فعلًا مجالات الحركة أمام الدول والحكومات من أجل تسهيل حركة الشركات العملاقة ذات الجنسيات المتعددة أو العابرة للقارات. ولهذا فإن من الممكن القول: إننا نشهد اليوم إعادة تركيب العالم على الصعد الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية.. وهذا سينعكس على

نحو ما على الصعيد السياسي بطرق غير مباشرة.

نحن نحلم منذ زمن بعيد بأن يكون للمسلمين في العالم دولة واحدة، تجعل منهم قوة ضاربة، وتحمي بلدانهم من التآكل الداخلي والغزو الخارجي. وهذا الحلم ينبغي أن يظل موجودًا، لكن تحقيقه اليوم أو في مدى الثلاثين سنة القادمة يبدو بعيدًا للغاية. إننا نحب أن يكون لنا شيء هو أعظم بكثير من (الإمبراطورية) لكن في زمان يقاوم بناء الإمبراطوريات. وكلنا يشاهد الصعوبات التي تواجه الولايات المتحدة الأمريكية وهي تحاول توسيع نفوذها بما يشبه محاولة تشكيل إمبراطورية جديدة.

ومن هنا فإن هناك من يقول: في المستقبل غير البعيد لن يكون هناك دول كبرى تفرض هيمنتها وتبسط سلطانها؛ ولكن سيكون هناك كتل ومجموعات عملاقة تفرض شروطها على الدول العظمى. والسبب في هذا أن الأموال والأعمال التي كانت تتركز في الدول العظمى، وتكوِّن بالتالي عناصر القوة فيها، باتت تتحرك في الأرض، وبات المستفيدون منها ينتمون إلى دول شتى. ويقدّم جنوب شرق آسيا مثالًا على ذلك، حيث إن كثيرًا من الشركات العملاقة باتت تهيئ فرص عمل كثيرة جدًّا لأبناء تلك المنطقة، وترتقي بقدراتهم الفنية، كما أنها تنقل اليوم الكثير من الخبرات التقنية خارج حدود أوطانها، مما يحرم الدول المسيطرة في العالم الكثير

من امتيازاتها، ولكن تأثير هذا لا يظهر إلّا بعد مدة.

ليس للعولمة قيادة مركزية وإن كان هناك من يحاول إخضاعها لرغباته ومصالحه، ولكن كل المشاركين في العولمة يتحركون على قواعد السوق وفي إطار التوجهات الليبرالية والرأسمالية. ومن هنا فإن العولمة تصنع وسائل انتشارها، وتستخدم وسائل موجودة، لكنها لا تستطيع في معظم الأحيان منع الضعفاء والمهمشين من استخدام تلك الوسائل لأهداف مضادة لأهداف العولمة ومصالحها؛ وهذا هو شأن الأفكار وشأن الوسائل، إنه المطاوعة للاستخدامات المختلفة.

انطلاقًا من كل ما تقدم فإن لمّ شعث أمة الإسلام في هذه الحقبة من التاريخ ينبغي أن يقوم على تكوين كيانات ذات طبيعة اختصاصية وعلى كتل ممتدة، يسهم فيها على قدر الوسع والطاقة كل من يستطيع المساهمة على مستوى الحكومات والهيئات والمؤسسات والأفراد. ويمكن أن ترتكز البدايات على مواقع (الإنترنت). نحن لا نريد تشكيل قوة ضاربة ولكن نريد أن نقوّي جسم الأمة ومعالجة المشكلات التي يعاني منها الكثير من أبنائها؛ وحين تتاح الفرصة لاجتماع الأجزاء القوية، فإنه يكون لوَحدة الأمة معنى ودلالة وآثار.. أما اجتماع المرضى والضعفاء والمفلسين، فإنه لا يولد في العادة إلّا المزيد من التوتر والمزيد من الشعور باليأس والإحباط.

وهذه بعض الأمثلة لما يمكن أن يتم:

١ - موقع عملاق على (الإنترنت) ترعاه جهة أو هيئة يخصص لجمع معلومات عن العالم الإسلامي: سكانه واقتصاده وأحوال مجتمعاته والتقاليد والعادات السائدة في كل بلد، إلى جانب توفير معلومات عن التعليم في كل بلد، وكذلك الصناعة والزراعة.. إن كثيرًا من تباعد المسلمين بعضهم عن بعض يعود إلى عدم توافر معلومات كافية عن العالم الإسلامي. والصعب دائمًا هو البداية، وبعد ذلك تُذلل العقبات، ويكثر العاملون والمتطوعون؛ ولا سيما أن لدينا أعدادًا كبيرة من الشباب المتحمس والراغب في عمل شيء، لكنه عمليًا لا يقدِّم أي شيء!

٢ - تكتل اقتصادي أو نادٍ لرجال الأعمال المسلمين يتبادلون فيه الخبرات، ويُجْرون من خلاله الدراسات، ويعقدون الصفقات، وينشرون المعلومات عن الاستثمارات والفرص المتاحة في البلدان الإسلامية، ويقومون بإنجاز المشروعات الكبيرة التي تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة.

٣ - إيجاد اتحاد عالمي يعمل على تحسين صورة الإسلام في العالم، ودفع الافتراءات الموجهة ضده.

٤ - إقامة أكبر عدد ممكن من الروابط بين الشرائح الاجتماعية وبين المهن والقطاعات المختلفة، مثل اتحاد الشباب

المسلم، واتحاد الأسرة المسلمة، واتحاد المعلمين المسلمين، ومثل ذلك للأطباء والمهندسين والمفكرين والناشرين..

لا شك أن الطريق إلى تحقيق هذا ليس معبَّدًا، لكنه ليس مغلقًا، وحين نفكر بواقعية، ونعقد العزم على ألّا نضيّع الممكن في طلب المستحيل، فإننا سنندفع بكل قوة في هذا الاتجاه. المهم أن نبدأ.

* * *

ممانعات

مكافحة العماء و (اللا تكوُّن) هو العمل الذي لا يكف بنو الإنسان عن ممارسته في كل زمان ومكان. وذلك لأن الحقيقة - أية حقيقة - ذات أغوار وأبعاد متتابعة. وكلما اكتشفنا غورًا أو بعدًا برز لنا غور آخر، يتطلب سبره وفهمه معرفة جديدة، تكون في العادة أبعد منالًا وأكثر خفاء في المعرفة التي احتجناها لاكتشاف الغور السابق.

وهكذا فإنه لطالما غمرنا شعور عام بأن المعرفة أشبه بالمال، المعروض منها دائمًا أقل من المطلوب. **نحن في حاجة إلى المزيد من العلم والمزيد من الخبرة من أجل أمرين جوهريين:**

١ - أن نتعرّف حقول الممارسة المتاحة، وأن نفتح حقولًا جديدة منها ملائمة لما هو متوافر من إمكاناتنا، وما نصبو إلى بلوغه من غايات وأهداف.

٢ - أن نكتشف السنن الربانية التي تحكم طبائع الأشياء والمنطق الذي يحكم تطورها. ومهمة هذا الكشف هو توفير الوقت والعناء الذي نتكبّده نتيجة جهلنا بالممانعات الناشئة من صلابة الأشياء وتأبّيها على التشكل الذي نريد. إن العقل بتكوينه الأساسي الفطري لا يستطيع إدراك تلك الممانعات من غير معرفة يمده بها المجتمع والواقع المعيش. ولا يستطيع

المجتمع الحصول عليها من خلال التأمّل المجرد، وإنما عليه أن ينغمس في التجربة والممارسة أولًا، وبعد ذلك سيكون في إمكانه استخراج بعض الدلالات ومن المستخلصات حول الطرق المسدودة وحول العلاقات القائمة بين الأشياء، والتي تحكم الكثير من وجوه الانتفاع بها وإعادة تشكيلها.

ويمكن أن نقول في هذا السياق: إن عقولنا ستظل متأزمة ومرتبكة وستظل تنتج الفروض الشكلية والبعيدة عن ملامسة المشكلات، ما لم نمتلك الروح العملية، ونحاول تضييق الهوة القائمة بين ما نقول وما نفعل. صحيح أن العقول هي التي ترسم الخطط النظرية، لكن إذا ما كانت الأيدي في أزمة وفي عطالة فإن العقل سيجد نفسه يتخبط حيث الافتقار الشديد إلى الأطر التي يعمل داخلها، والمعطيات التي يشتغل على أساسها.

ولنضرب بعض الأمثلة على ما نقول:

• من غير الممكن في مؤسسة يسودها الظلم وهضم الحقوق جعل العاملين يعملون بحماسة وأريحية. إنهم سيبذلون الحد الأدنى من جهودهم بما يكفي لتأمين سير العمل عند حدوده الدنيا. ولكل قاعدة فيما نقوله شذوذات لا تجرح صفاء هذه المقولات بمقدار توكيدها لها.

• من غير الممكن تكوين ضمير أخلاقي رادع في مجتمع

يسوده الخروج على النُّظُم المرعية على نحو سافر وواسع. القانون يولِّد ثقافة. والثقافة حين تتشكل تحمي القانون إلى حد عدم الحاجة إليه في الضبط الاجتماعي، أي تتحول الثقافة إلى قوة ضابطة تحل محل القانون.

● لا نستطيع قطع دابر الخلاف في أي قضية وقع بيننا خلاف في تعريفها. وإذا عرفنا أننا لا نستطيع تفادي (الانتقائية) في كل أو معظم التعريفات، عرفنا لماذا يصعب حسم النزاع في الكثير من القضايا الإصلاحية والتربوية.

● لا تستطيع أن تكون معتزًّا بنفسك أو نسبك أو انتمائك إلى شيء بعينه دون أن تعرِّض نفسك لسوء الفهم والنظر إليك على أنك متعجرف ومتكبر. كما لا يستطيع الحليم أن يمنع الناس من تفسير حلمه على أنه جبن وخور.

● لا تستطيع الوصول إلى حلول كاملة في وسط غير كامل. وإذا عرفنا أن المعروض من المعرفة ومن المال والأدوات والمتوافر من الظروف هو دائمًا دون ما هو مطلوب عرفنا أن حلولنا ستكون دائمًا ناقصة، وسيكون النصر النهائي شيئًا بعيد المنال.

● كلما زادت الرقابة الاجتماعية على الأفراد ضعف لديهم الوازع الداخلي؛ وذلك لأن الشعور بالمسؤولية يتطلب قدرًا من التفويض وقدرًا من الحرية. وهذا يعني أن التدقيق

الشديد في حياة الأفراد يدفع بها دفعًا إلى أن يكون لهم سلوكان، خيرهما الذي يظهر للناس.

● من العسير جدًّا أن نستطيع توليد مشاعر جميلة في مكان تجتاحه الفوضى أو القذارة، أو مكان ضيّق لا يستوعب الشاغلين له.

● في ظل الفساد الإداري، يمكن للاقتصاد أن يتقدم، ولكن إلى حدود، حيث إن النمو الجيد يتطلب دائمًا درجة عالية من الثقة والمصداقية. وهذا ما يصعب توفيره آنذاك. الفساد الإداري يدفع بالناس إلى القيام بموازنات وإجراء حسابات كثيرًا ما تفضي بهم إلى سحب أموالهم من الدورة الاقتصادية.

● الأنشطة السياسية والتربوية والتعليمية والدعوية والتجارية والإدارية تتم في إطار (نظم مفتوحة) أي في بيئات تسمح بوجود تأثيرات أجنبية خارجة عن إرادتنا وسيطرتنا. ولهذا فإن التنبؤ بنتائج هذه الأنشطة يظل غير دقيق. وهذا على عكس الأنشطة التي تتم وفق نظم مغلقة.

● إذا كان الشيء ذا وسط متدرج لم نستطع أن نصدر عليه أحكامًا قاطعة، وكان علينا أن نقنع بالأحكام التقديرية والتقريبية، كما هو الشأن في (الصفات)، والسبب في ذلك عدم قدرة النظام اللغوي على مواكبة التدرج الموجود في

الأشياء. وهذا هو مصدر ارتباك العقل في التعامل معها.

• من الصعب اليوم أن يتعشّق شعب المعرفة، ويبذل من أجلها، أو ينتج معارف متقدمة، وأكثريته تعمل في مهن بدائية وحرف يدوية.

• من كانت ملكة النقد لديه نامية أكثر مما ينبغي فإنه لا يستطيع أن يتفادى التعرّض للجفاف الروحي.

• الحرية قدرة على الاختيار. ولا اختيار من غير بدائل. وليس لشعب أن يدعي أنه حر كريم والضرورات تحيط به من كل جانب.

• ما دامت قدراتنا - مهما عظمت - تظل محدودة فإن الكم في أعمالنا، لا يكون إلّا على حساب الكيف. والتقدّم الحضاري كثيرًا ما يتطلب تفوّق الكيف لا الكم.

إن هذه الممانعات تُملي علينا المزيد من التبصّر والفهم العميق للعلاقات التي تربط بين الأشياء. وإن فقه الأولويات الذي كثر كلامنا فيه لا ينمو على النحو المطلوب إلّا إذا زادت حصيلتنا من هذه المفاهيم والمدركات.

الانخراط في العمل والاهتمام بالإنجاز واحترام الممارسة كل ذلك مما يحسّن رؤيتنا لما هو ممكن وما هو في حيز المستحيل والعسير والبعيد. وإنَّ تجاهُل طبائع الأشياء والسنن الربانية في تطور الأمور يظل مكلفًا جدًّا مع أن صلابة السنن

الاجتماعية أقل من صلابة السنن الطبيعية. وإني أشعر أن فقه (الطرق المسدودة) ما زال لدينا يميل إلى الفجاجة والضآلة، وأن إنضاجه قد يكون شيئًا مهمًّا لتقدُّم الوعي الدعوي والإصلاحي.

* * *

الخيَّاط الرديء

سخَّر الباريءُ - تباركت أسماؤه - للإنسان كل ما يمكن أن تصل إليه حواسُّه، أو يناله بأدواته وآلاته. وكثيرًا ما تعني علاقة التسخير هذه وجود علاقة تحدٍّ بيننا وبين الأشياء المسخَّرة لنا. إن بذور القطن تتحدى الفلاح كي يبذرها، وينتفع بها. فإذا حان وقت القطاف تحدّاه القطن كي يجمعه ويستفيد من ثمنه. القطن يتحدى المشتغلين بالغزل كي يحوّلوه إلى خيوط مغزولة. فإذا صار خيوطًا صار وجوده الجديد عبارة عن تحدّ للنساجين كي يحوّلوه إلى قماش. أما القماش فإنه يتحدى الخياط كي يجعل منه حلة بهية تزيّن لابسها، وتدفع عنه أذى الحر والبرد.

إن تحدي القماش يظل حاضرًا إلى أن يقوم أحد الخياطين بتفصيله وخياطته. فإذا فعل ذلك أحدهم زال التحدي الذي كان ينتظر فئة الخياطين. وتزول مع التحدي الفرصة التي كان يوفرها وجود القماش لإظهار ذوق الخياط وبراعته في حرفته.

إذا كان الخيَّاط شخصًا غير كفء، أو كان كفئًا لكنه لم يول الاهتمام الكافي لتلك القماشة فإن الثوب المخيط لن يؤدي المنفعة المنتظرة منه. وإذا كان ضيقًا جدًّا، ولا يمكن توسيعه - مثلًا - فإن خسارة صاحب الثوب تكون مركّبة؛

إنه يخسر ثمن القماشة، ويخسر الأجرة التي دفعها للخياط. ومع تلك الخسارة يكون قد جلب إلى بيته شيئًا يزعجه كلما احتاج إليه.

هذه القضية بكل تفاصيلها المملة يمكن تطبيقها على الكثير من مجالات الحياة. هذا مدير لمدرسة قَبِلَ التكليف بإدارتها، أو سعى إلى ذلك، فزاد مرتّبه، ونال شيئًا من الجاه والنفوذ؛ لكن - كما نعلم - الإدارة ليست رغبة ولا ريادة ولا مكاسب ولا إطلاعًا فحسب، وإنما هي إلى جانب ذلك موهبة وفن وقدرة على المتابعة، ومرونة وقدرة على التكيف وشفافية. إن هذا المدير مسؤول عن تسهيل تطبيق النظم داخل المدرسة، ومسؤول عن تطويرها وقبل ذلك حمايتها. كما أنه مسؤول عن تأمين أفضل تفاعل إنساني ممكن داخل المدرسة، ونصف من يتولى إدارة المدارس - على الأقل - لا ينجحون في ذلك، أو لا يحققون الحد الأدنى من النجاح. والنتيجة هي تعويق المسيرة الدراسية وخذلانها بالإضافة إلى شغل مكان كان في الإمكان شغله برجل أكفأ وأجدر من ذلك المدير..

نحن دائمًا مع قبول التحدي، ومع العمل على رفع سوية الذّات لتصبح في مستوى التغلُّب على العقبات والمشكلات، وفي مستوى ما يتطلبه أداء المهام الجليلة من جاهزية وفاعلية. وكم من إنسان تولّى عملًا دون أن يكون

مستعدًّا لأدائه على الوجه الأكمل، ثم أخذ في تأهيل نفسه وصقل مهاراته، ومن خلال الإخلاص والدأب والسعي إلى التطور استطاع الارتقاء فعلًا إلى مستوى العمل الذي تولاه.

إن التديّن يوفِّر قدرًا حسنًا من الشعور بالمسؤولية تجاه ما نُكلَّف به أو نندب أنفسنا إليه، كما يوفر قدرًا حسنًا من الشعور بالمسؤولية تجاه الأخطاء التي نقع فيها. ويمكن أن نقول: إن التدين العميق الصادق لا يكون كذلك إذا لم يصاحبه شعور متصاعد بالمسؤولية. ولنا في قول عمر ﷺ عن الخلافة: « يا ليتني أخرج منها لا عليَّ ولا لي ». وقوله: « واللَّه لو عثرت شاة في أرض العراق لخشيت أن يسألني اللَّه عنها ». لنا في ذلك دلالة صريحة على هذا. وإن المرأة التي زنت على زمان النبي ﷺ وكانت تراجعه المرة تلو المرة حتى أقام عليها الحد؛ تقدِّم نموذجًا رفيعًا جدًّا لتحمل المسؤولية الكاملة تجاه الأخطاء الشخصية.

حين يرتقي مجتمع من المجتمعات في سلّم الحضارة تتسع دائرة إحساس الناس فيه بالمسؤولية، ويكون ذلك عاملًا مساعدًا على المزيد من الارتقاء. وحين ينحدر مجتمع إلى مستنقع الجهل والفوضى وفساد الذمم فإن بنية الشعور بالمسؤولية تتعرض إلى ما يشبه المسخ، ويعبّر الناس عن ذلك بالعمل وفق مقولة: « مشكلاتنا صنعها الجيل السابق، وسوف يحلُّها الجيل اللاحق »!

هنا يأتي دور الرواد ذوي الهمم العليّة والنفوس الزكيّة الذين ينهضون بين النيام، ويتجاوزون سقف الوعي الذي بنته مجتمعاتهم والسقف الأخلاقي الذي تحبو تحته. إنهم يعملون على إرساء تقاليد وأعراف ثقافية تتحدى غيرهم، وتضيء الطريق لمن يأتي بعدهم. فهل أنا وأنت واحد منهم؟

* * *

نحو الغد

يكثر الحديث اليوم حول التلاؤم مع الظروف والأوضاع الجديدة، كما يكثر الحديث عن إدخال العديد من التغييرات على أنماط سلوكنا وعاداتنا من أجل مواجهة التحديات المعاشية المختلفة. **وربما كان كل هذا نابعًا من أمرين أساسيين:**

الأول: هو أن التجديدات والابتكارات التقنية المتلاحقة تغيّر في كل جوانب الحياة. وهذا التغيير يساعد على إيجاد المزيد من الرفاهية والمزيد من القوة والمكنة أيضًا، لكنه يجعل الشروط المطلوبة للعيش الكريم واللائق أشد قسوة وأكثر تعقيدًا.

الثاني: هو ما يمكن أن نعدَّه قفزة نوعية على طريق اكتشاف الإنسان لنفسه وطريق ثقته بها أيضًا. وأنا أشعر أن العالم كله يتجه ويتقدم نحو الرؤية القرآنية للإنسان بوصفه مركز الكون ومحور الوجود.

إن معظم الآيات القرآنية ومعظم الأحاديث النبوية تركِّز على إصلاح الإنسان الذي بصلاحه تصلح الأرض وبفساده يفسد كل شيء.

والحقيقة أن تدعيم الإنسان لذاته، وتنميته لمهاراته ومجاهدته لأهوائه وشهواته، باتت من الأمور الملحة جدًّا

اليوم؛ حيث يترسخ في أذهان الناس أن النصر الحقيقي الذي يسبق كل نصر، ويعد في الوقت نفسه شرطًا لتحقيق النصر الكبير هو ذلك النصر الذي يحرزه أحدنا على صعيده الشخصي. وإن كل الانتصارات وفي كل الميادين ستظل منقوصة وسطحية إذا لم يحدث التقدّم المنشود في عقول المسلمين ونفوسهم.

إن القرآن الكريم يوضِّح لنا بجلاء جوهرية القرارات الشخصية في ارتقاء الحياة وازدهار الأمم. إذا كنا في حالة حسنة ووضعية جيدة، فإن اللَّه - تعالى - يخبرنا بإمكانية استمرار تلك الوضعية إذا قمنا بأداء شكرها، والتزمنا الصراط السوي الذي علينا أن نسلكه.

وفي المقابل فإن الخلاص من الأوضاع الصعبة والمزرية يتطلب منا أن نحدث تغييرات نحو الأفضل والأرشد على صعيدنا العقلي والنفسي وبالتالي بالسلوكي. ونجد هذا وذاك في قول اللَّه - جلّ وعلا -: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

إذا قمنا بتغيير ما نملك تغييره من أخلاق وصفات ومفاهيم وسلوكات. فإن اللَّه - تعالى - يغيّر لنا في البيئة ما لا نملك

تغييره فضلًا منه وكرمًا، وهذا ما نجده في دعوة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٣].

إن الإنسان يكتشف اليوم - على مستوى العالم - أن رأسماله الحقيقي ليس ما يملك من أراضٍ وعقارات وأرصدة وأمتعة.. وإنما ما يملكه من مبادئ وقيم ومشاعر واتجاهات ومعارف ومهارات.. حيث إن التقدم المادي يخضع لشروط، وستكون له في النهاية حدود يتوقف عندها. أما التقدم العقلي والروحي فإنه ليس مسوّرًا بأسوار تحدُّ من انطلاقه أو إيقاع حركته.

إنني أشعر أن كثيرين منا يحبّون أن يستجيبوا للتحديات، وأن يحسّنوا علاقتهم بالله - تعالى - وأن يكون غدهم خيرًا من يومهم، لكن مع الأسف لا يحرزون إلّا القليل من التقدُّم، ويجدون صعوبة بالغة في الانتقال من حيّز الرغبة والأمنية إلى الحيّز العملي والتطبيقي. بعض هؤلاء لا يهتدي إلى الخطوة الأولى التي يجب أن يخطوها، وبعضهم يسيطر عليه رهاب الابتداء في التغيير والانطلاق إلى حيث يجب أن يكونوا.

إن أول ما يجب علينا أن ندركه على نحو حسن هو المشكلة التي يعاني منها الواحد منا على صعيده الشخصي. إن معرفتنا بأنفسنا غير كاملة، كما أن سيطرتنا على أهوائنا

ورغائبنا تظل غير مطلقة، أضف إلى هذا أن الكمال شيء نرومه، ولا نقبض عليه. وهذا يجعل وجود المشكلات، أو قُلْ وجود شيء يحتاج إلى تغيير أو تدعيم أو تجديد، أمرًا لا بد منه. إن الاعتراف بوجود مشكلة ما في حياتنا الخاصة هو الذي سيولد الشعور بالحاجة إلى التغيير، وسيجعل للعناء معنًى ومغزًى واضحًا، لكن إدراك المرء لمشكلاته ليس بالأمر السهل، فالعقل يتعامل مع صور ذهنية كثيرًا ما تكون غامضة، وهو يحتاج في إدراكها إلى مفاهيم يستخدمها في ذلك؛ وهذا يعني أن غياب المعرفة كثيرًا ما يعني غياب المشكلة نفسها، حيث لا مشكلات من غير معارف تساعدنا على كشفها.

إن مراجعة النفس ومحاسبتها، وإن التدقيق في أمورنا الشخصية على مستوى الأخلاق والسلوك وعلى مستوى العمل والإنجاز سوف تساعد على توليد شيء من المعرفة التي نحتاجها على هذا الصعيد. أضف إلى هذا مقارنة أوضاعنا وأحوالنا بما عليه غيرنا من الأصدقاء والزملاء.

وسيظل للقراءة والاطلاع دور مهم في هذا الشأن. سيكون مِن الجوهري في كل هذا أن نسجِّل ما يتحصَّل لدينا، والأَوْلى أن نكتبه ونضعه في مكان بارز، حتى تراه العين باستمرار. لنكتب ملامح المشكلة التي نعاني منها، ولنكتب الأضرار التي تلحق بنا من وراء استمرارها إلى

جانب تحديد بعض خطوات معالجتها. إن الكتابة على الورق هي كتابة في الوعي وفي العقل. وهي تدل على أننا جادون في تطوير أنفسنا، كما تدل على أننا تجاوزنا مرحلة الهم والتمني إلى العمل والتنفيذ. إن كل ما ذكرناه يشكِّل ما يشبه المدخل الذي لا بدَّ منه لمعالجة المشكلات الشخصية.

* * *

الامتحان الصعب

يحكم شؤوننا العامة والخاصة نوعان من النُّظُم:

- نظم ثقافية تقوم على العقائد والأفكار والقيم والرمزيات والعادات والتقاليد.

- ونظم حضارية، تنبثق من مبادئ وحاجات الإنتاج والاستهلاك والتبادل المادي، وما يدور في فلك ذلك ويقتضيه.

النظم الثقافية، تشكل روح الحضارة وعقلها المدبر، على حين توفر النظم الحضارية كل ما من شأنه الارتقاء بالهياكل والأوضاع المعيشية. وبين هذه وتلك من الجذب والنفور والتأثير والتأثّر ما بين الشكل والمضمون والروح والجسم. ونحن نشهد اليوم دفقًا ثقافيًا هائلًا، لم يسبق للبشرية عهد بمثله، وهذا الدفق مع أنه سيظل وثيق الصلة بالفلسفة العميقة للأمم التي تقود الحضارة اليوم إلّا أننا عند التأمل نجد أنه يشكّل ما يمكن أن نعدّه منتجًا ثقافيًا ثانويًا للتقدم الحضاري المادي على صعيد الإنتاج والاستهلاك والتبادل.

وقد أشار إلى هذه الوضعية مدير شركة (سوني) حين سُئِل: ألا تراعون في منتجاتكم الخصوصيات الثقافية للدول والشعوب التي تصدّرون إليها؟ أشار بقوله: نحن هنا نصنع ثقافات، ولا نجد حاجة إلى مراعاة خصوصيات أو تنوعات ثقافية!

هذه الوضعية تكاد تكون فريدة في تاريخ البشرية؛ إذ إن بطء التطوّر الحضاري في الماضي كان يسمح بدور مؤثر للثقافة في توجيه النمو المادي، أو يسمح - على الأقل - بدرجة من التكيّف والتلاؤم بينهما.

وفي اعتقادي أن كل الأيديولوجيات والقيم، وكل ما كان متصلًا بالرمز والمعنى والعادة يتعرض لامتحان هو الأصعب من نوعه؛ حيث ينفتح وعينا اليوم - كما لم يحدث من قبل - على تلمّس ما هو من قبيل اللذة والمتعة والراحة والمنفعة، وما هو من قبيل المحسوس والعاجل والسطحي؛ وتتقدم فنون التسويات الفكرية والحلول الوسطى وتذويب الثنائيات على نحو مدهش ومخيف. وصار ما كان يعد من قبيل المحرمات والممنوعات الثقافية يتضاءل على نحو مستمر ومتصاعد، مما قد يعني في نهاية المطاف ضياع المرشدات العليا لحركة الحياة!

وقد دلت الشواهد التاريخية على أن الحضارة تغلب الثقافة، وأحيانًا تقتلها كما يقتل المكان الزمان، وكما يقتل الامتداد الاتجاه. ولا أدري لماذا يحدث ذلك؟ هل لأن الحضارة تعبّر عن ذاتها بلغة أوضح من اللغة التي تعبّر بها الثقافة؟ أو لأن المنتجات الحضارية على صلة بالملموس وعلى صلة بالأهواء والرغبات على حين تنزع الثقافات إلى المجرد والمتعالي؟ أو أن ذلك يحدث لأن تعميم المنتجات الحضارية

أسهل من تعميم الرموز الثقافية؟ أو لأن المشتغلين بتنمية الحضارة يشكّلون أضعاف المشتغلين بتنمية الثقافة؟ أو لهذه الأسباب كلها.

وعلى كل حال فإن تجربتنا الحضارية الخاصة تدل على أن التقدم العمراني كان يقترن في معظم الأحيان بتراجع في سوية التدين والالتزام الخلقي العميق؛ وكأن الوعي البشري يرتبك حين يكلّف بإدارة منتجات حضارية ضخمة من أفق أصوله وثوابته ورمزياته. وهذا يجعل التقدم الحضاري يشكّل خطورة كخطورة هيكل وضعنا له محرك سيارة وكوابح دراجة. وإنها لمغامرة كبرى تلك التي نقوم بها اليوم حين نحفز على النجاح بكل وسيلة إلى درجة جعله غاية في حد ذاته، على حين يخفت الصوت الأخلاقي والقيمي إلى درجة الاستحياء من رفعه!.

العربية التي سطّرنا في بيان فضائلها وعظمتها الكثير من الصفحات تتراجع في كل يوم بوصفها شيئًا يتصل بالثقافة، لصالح اللغات الأجنبية بوصفها شيئًا يتصل بالحضارة. والتربية بوصفها ناقلًا للقيم والعادات تتراجع هي الأخرى، ويترسخ (التدريب) بوصفه متطلبًا للانخراط في سوق العمل. التجارة بوصفها هندسة التبادل المادي تكسب في كل يوم أرضًا ثابتة على حساب قيم النزاهة والصدق والنقاء والشفافية بوصفها مؤشرات أخلاقية..

القوانين والنظم السارية تشكّل في الأصل منتجات حضارية تستهدف التقليل من ابتعاد المسار الحضاري عن مسار المدلولات الثقافية؛ وتشهد هذه كلها في بقاع كثيرة من عالمنا الإسلامي نوعًا من الانهيار بسبب انتشار الأنانية والفساد والرشوة والتهرّب من الضرائب، مما يعني جمود القيم وانحسار فاعليتها عن توجيه المناشط الحضارية كافة!.

مع إيماني العميق بأن لدى الآخرين أشياء كثيرة يجب أن نتعلمها منهم، إلّا أنني أؤمن أيضًا أن العقل الغربي يقود العالم إلى الدمار؛ حيث حصر نفسه في البحث عن الوسائل بوصفها غايات في حد ذاتها. وأخذت حكمة الغرب - بما هي بحث في الغايات - تتراجع في حياته على نحو مخيف؛ بل إن حكمة الغرب تظل محدودة النجاعة؛ لأنها لا تستطيع بوصفها منتجًا عقليًا بعيدًا عن الاهتداء بنور الوحي - أن تهتدي إلى علّة أولى أو إلى غاية نهائية. العلم يبحث في الأسباب، والحكمة تبحث في الغايات، وهما معًا في حاجة إلى بعد ثالث هو (الإيمان)، والإيمان يبدأ عند انتباه الوعي البشري إلى محدودية كل من العلم والحكمة؛ لأن الإيمان عقل بلا حدود، ينهل من علم غير محدود.

ليس من اللائق إذا كانت لدينا عيوب وأخطاء وانكسارات، وإذا كنا في حاجة إلى كثير من المراجعات - ليس من اللائق أن نستسلم تجاه تراجع الثقافة أمام الحضارة؛

لأن الاستسلام سوف يعني خسارة لرأسمال فكري ومعنوي، قد لا نستطيع تعويضه على مدى قرون! وتبدأ المقاومة حين نتمكن من بلورة مرجعية فكرية ومعرفية وأخلاقية مستنبطة من مجموع أهدافنا النهائية وواجباتنا الكبرى.

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد أ. د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم أ. د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات

الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة (دليل) الإسلامية باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًّا بقناة (المجد) باسم: « معالي »، وكان أ. د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة (المجد) باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: (العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي) استمرًا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض، بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة (الرسالة)، وقناة (اقرأ)، وقناة (الناس) والتلفزيون السعودي.

ويحرص أ. د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب أ. د. بكار مقالات دورية في مجلة البيان اللندنية ومجلة: « الإسلام اليوم » الشهرية، ومجلة: « مهارتي » الصادرة عن جامعة الملك سعود، وموقع « الإسلام اليوم »، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

وأ. د. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة: « الإسلام اليوم » (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة (دليل)، وعضو في مجلس الأمناء لقناة (سنا) الفضائية (عمان).

ويعد أ. د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم أ. د. بكار للمكتبة الصوتية

أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

أمَّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار هجر، أبها، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٢ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٣ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٤ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)

١٥ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات عملية، دار السلام، القاهرة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

رقم الإيداع

٩٩١٥/٢٠١٠

الترقيم الدولي I . S . B . N

978 - 977 - 342 - 893 - 8

الكتاب في سطور

إن العالم يعيش في حالة فريدة من التضاغط والتزاحم العلمي مما أدى إلى تعاظم قيمة الفعل وتضاؤل وزن الكلام. والعيش في ظل حضارة مادية جاحدة يحتاج اكتشاف مساحات نشر الخير فيها إلى نوع من الإبداع، في حين أن الشر يدخل بلا استئذان. والمغريات الكثيرة تحفز على الانخراط في الشأن الدنيوي مما أضعف قدرة الناس على مقاومة الشهوات، بقدر ما أضعف نزوعهم إلى الآخرة وإلى عالم المعنى بشكل عام.

والكتاب يحرِّض على بناء ثقافة واعية تخرج بالإنسان من الكلالة إلى الفاعلية والإنجاز، فيدرك أن أزماته لا ترجع إلى الآخرين بقدر ما ترجع إلى العقليات والمرجعيات والعقائد والسلوك، وأن المقدمات غير السليمة لا تنتج إلا عواقب وخيمة.

Dar-Alsalam Designs

الناشر



